حكايات من خلف الزبير

مجموعة قصصية

رستم عبدالله عبدالجليل

حكايات من خلف الزبير

رستم عبدالله

©جميع الحقوق محفوظة.

المؤلف: رستم عبدالله.

عنوان الكتاب: حكايات من خلف الزِبِير.

نوع الكتاب: مجموعة قصصية.

لوحة الغلاف: إهداء من الفنان عصام العبسي.

الطبعة: 2021م

رقم الإيداع: 2014/94

الإهداء

إلى روح أبي رحمة الله عليه من فتح شهيتي لحب القصص منذ الصغر، وإلى أمي نبع الحنان أطال الله في عمرها (رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

وإلى أرواح شباب الثورة الذين قدموا أرواحهم رخيصة ؛ لأجل هامة الوطن؛ ولأجل أن نحيا حياة كريمة وإلى كل من ضحى لأجل هذا الوطن.

وإلى زوجتي من تحملت الكثير لأجلي .

وإلى أبنائي البراء وجنات وترتيل زينة الحياة الدنيا.

وإلى كل من شجعنا و وقف إلى جانبي...

أهدي هذا العمل وباكورة إنتاجي القصصي...

تقديم

محمد الغربي عمران.

أفق الإبداع يتسع يوما بعد يوم، ولم تعد اليمن زاوية معزولة عن العالم؛ لتتابع النجوم بريقها الإبداعي بعد أن استوطنت القصة مساحة من المشهد اليمني وتزايد فرسانها.

واليوم بين يدي القارئ مجموعة قصصية تمتاز بقربها من نبض المجتمع ، بل وبواقع يحاول الكاتب الغوص في أعماقه وتقريبه إلى وعي القارئ من خلال عشرين نصا جميعها تحمل هموم إنسان يتوق للحرية والعدالة.

عنوان المجموعة حكايات من خلف الزبِير، والعنوان لأحد نصوص المجموعة ويحكي عن ثلاثة شبان استطاعوا أن يخترقوا حدود الجارة الكبرى، تلك الحدود التي تغير لونها ؛ لكثرة الدماء، وتلك الوديان التي تنتشر روائح بارود الرصاص، وتتردد صدى أصوات لا تُفهم وقد ينطقها حراس الحدود القادمين من شرق آسيا.

يحمَل الكاتب المسؤولية حكام صنعاء وكأنه يلخص قول البرودني "أمير النفط نحن يداك ونحن أحد أنيابك.. ونحن القادة العطشى إلى فضلات

أكوابك.. ألا يا سيد الأذناب نحن خير أذنابك.. حاكمون في صنعاء وفراشون في بابك..."

هي نصوص صارخة ضد الظلم والتعسف تساند الثورة على التسلط وتبشر بفجر جديد. لكن النص (ثائر) تفضح تلك الأوضاع وتلك الشخصيات التي كثيرا ما قدمت نفسها على أنها شخصيات مثالية وشريفة وهم لصوص الثورات.. ثائر نص قوي ينتقد أوضاع مقلوبة.. ممثلا بشخص كلنا نعرفه حاول أن يبيض أعماله وسرقاته بتأليف كتاب يتحدث عن أمجاد زائفة.. كم أمثاله كثر.. لكنهم القبح والفساد.

(نجم) إحدى حكايات المجموعة وصديقه أحمد، ونجم جدي صغير، ينقلنا الكاتب بروح رقيقة ومشاعر دفاقة إلى أجواء الطفولة وروائح الريف حيث الحقول وروعة البواكير ، لكنها قصة تنتهي بحزن شديد حين يكتشف أحمد بأن نجم قضى نحبه اختناقا بحبل طواه حول عنقه الصغير.

سانتاكلوز.. نص ساخر يقدم لنا الكاتب معاناة الفرد المعدم وذوي الدخل المحدود أمام غارات الدائنين وموظفي الكهرباء ومؤجر المنزل... وتلك الدوامة التي لا تنتهي، إنه سانتا كلوز حين يقوم بزياراته مقدما هداياه المفرحة.

نصوص مجموعتنا القصصية هذه تنوعت بين القصص الاجتماعية والسياسية، وقصص تفضح الفساد. وأخرى ثورية . وجميعها تلتقي معنا في حب الوطن وتقديسه.

نصوص محبوكة بفن متقن.. توحي بكل ما نحبه لوطننا ومجتمعنا.. تدعو الشباب لمزيد من الثورة والتجديد.. ومقاومة التسلط والظلم وتدعو إلى الحرية والعدالة والمحبة والسلام.

لن أكثر .. حتى أترك للقارئ الكريم متعة القراءة.

سانتا كلوز

كانت الحارة غارقة في الظلام ،والزمهرير يكنس حثالة أزقتها الضيقة، المرصعة بالحجارة السوداء الملساء ،والباهتة ،وأوى الناس إلى مخادعهم باكراً، وبدت بيوت الحارة العطشى والمجدبة ،التي غابت عنها الفرحة والابتسامة، أشبه بشواهد قبور ا لموتى .مضى وقتا طويلا منذ أن زارهم ذاك الضيف الكريم المؤمل الجانب والذي ينتظرون قدومه بتلهف مطلع كل شهر وعيونهم مزوجة على الخزانات وعدادات المياه ترقب مجيئه مراقبة المشوق المستهام.. إنه سانتا كلوز الذي يحمل إليهم هداياه كل شهر، وأحيانا يتأخر شهرين وثلاثة أشهر يطلق عليه الأطفال أبو الحروف ؛ لسرعة مروره الشديدة وخطواته المهولة، حيث إنه يمر مرور الكرام ولا يطيل المكوث ويسميه البعض من كبار السن - بابا حنين؛ لأنه يطيل الغيبة ويعود حاملاً في طياته الخيبة ، ويتجاهل بزيارته الذين يقطنون البيوت العالية كان ذلك مشروع المياه الذي يزورهم كالنسمة وكمذنب هالي، لم يعد الناس يكترثون له وغابت عن الحارة والمدينة بأسرها ابتسامات الموكيت والسجاجيد التي كانت تشرق فوق أسطح المنازل والملابس التي ترتسم فوق أحبل الغسيل وأصبح كيس هدايا "سانتا كلوز" ضيفهم المائي الجميل، الذي كان يهل عليهم براء كل شهر محاقاً يثقل كواهلهم بعتمة فواتيره.. الجائرة.. والباهظة.. ثمن الهواء.. الذي يضخ عبر أنابيب المياه.

جذيب

في إحدى الأمسيات الجميلة وفي جلسة من مجالس القات المدخنة تدخين والتي تتفصد فيها الجباه عرقاً وتتنزى الأجساد دهناً والتي تتحكم بالقرار، اتفق الأصدقاء مسرور، وفارع، ومرزوق ،ومليط على أن يذهبوا في الصباح الباكر ويشدو الرحال إلى حمام الحويمي في كرش والذي -كان يبعد مسافة 35كيلومترا- عن قرية الهجر حيث يقيمون، كانوا بأمس الحاجة إلى الاغتسال بمياهه الكبريتية الدافئة لتذهب عنهم مرارة التعب والإرهاق خصوصا بعد المجهود الذي بذلوه بموسم الصراب (الحصاد)لهذا العام كان أكثرهم تواقا إلى تلك الرحلة مليط الذي كان دائم التذمر والشكى من تلك العروق التي تألمه أسفل لوح الكتف أو ما يسمى بالنفرة، وكان لديه اعتقاد راسخ أن تدفق المياه الكبريتية الحارة في حمام الحويمي كفيل بإزالتها وكثير ما كان يغمض عينيه ويتخيل نفسه منقوعاً بينها وسط إحدى تلك البرك ،وحبات الماء تتسلل إلى جسده وتعمل على تفكيك تلك العقد المترابطة من العروق والأوتار، وهو يسترجع كلام فقيه القرية ومجبر العظام فيها وهو يقول له بصوته المبحوح يا بني هذه عروق طلعت فوق بعض وتعلق بشجرة الصباح الباكر وسوف تزول وأخذت أحلام اليقظة تراوده وهو يتخيل كيفية التصاق العرقين ببعض وانديا حهما بفعل المياه الحارة والكبريتية، وكان يستشعر بلذة وقد بدا خدار القات الذي تكور في خده الأيسر يعمل مفعوله، أرخى الليل سدوله سريعا وغرقت القرية بالظلام الدامس وأوى مليط إلى

مخدعه، استيقظ مليط باكرا مع ساعات الفجر الأولى وذهب إلى مسجد القرية لأداء صلاة الفجر حاضرا.

وعاد وتناول فطوره وهرع مسرعاً إلى أسفل الوادي السحيق حيث كانت تقبع السيارة اللاندكروز أو الصالون كما يطلق عليها أبناء القرية- أخذت السيارة تسير فوق الوادي وهي تهتز وتتقفز بسبب الحصباء ووعورة الطريق وتعرجه، حتى خرجوا أخيرا من عنق الوادي وبدأوا يسيرون في الخط الاسفلتي المريح حينها بدأت السيارة تنهب الأرض نهباً وقد استعادة عافيتها كأنما نشطت من عقال.

وشارفت السيارة على الوصول إلى الحمام وبدأت تخفف السرعة وتنعطف في طريق فرعي- وفي الحمام أخذوا يخلعون ملابسهم الخارجية ويضعونها في أكياس بلاستيكية ويخفونها في تجاويف صخرية قرب البركة التي قفزوا إليها و أخذوا يتقاذفون بالماء وعلَى صخبهم ويبدو أن هذا الوضع لم يعجب أحد الزوار الذي بدأ يشتمهم بأقذع الكلمات ،وينعتهم بالكلاب والحمير والقرويين السذج، وحاول فارع الذي كان بالفعل فارع الطول اللحاق به ولكن شُعيب هرب مبتعدا وكان بقامته القصيرة يبدو كالضفدع وهو يتقفز بين الصخور.بعد أسبوع في سوق الراهدة الشعبي الشهير وبينما كان رفقتنا يتسكعون بانتظار وصول القات إذ بمسرور يصيح كالملسوع وهو يشير بيده اليمنى نحو شخص قصير وبدين بدأ كالقرادة وهو يغذ السير نحو أحد الدكاكين وهم بين مندهش وغير مصدق أي ريح طيبة ساقت ذاك سليط اللسان

والوفق إليهم غذوا السير بعده نحو الدكان ووقع نظرهم على صاحب الدكان وهو يصرخ ويشير بيديه وقد مل هذا المشتري الأخرس الذي بدا منهمكا بعملية الشراء، أو هكذا تظاهر ومن ثم أخذ يرفع السبابة كمن يشهد الله ثم اشترى علبة العصير ومضى بعد أن دفع ثمنها و بدون أي مقدمات دلف للمحل الذي يليه وهو يرمق مسرور ورفقته شزرا وقد أخذ وجيبه يرتفع وبنفس الطريقة ومحدثاً نفس الجلبة لينتهي به الأمر بنهاية المطاف بشراء قباعة قماشية مرسوم عليها صورة ثور أحمر، وأخذ النقاش يحتدم بين مسرور وفارع ومليط ومرزوق فهناك من يرى أن هذه القرادة ليست سوى سفيه الحمام وآخر يقول أنه أخرس يشبهه.

وأكد لهم مرزوق أنه ليس هو وان في كثير من الحالات تجد تشابها لدى الأقزام وهذا الأمر دائم الحصول، لينتهي بهم الأمر لنظرية مفادها أن الأقزام يتشابهوا كل هذا والقرادةُ جُذيب تبتعد رويدا رويدا حتى ابتلعه السوق.

الشيخ عفيف

زحف الليل بجلبابه سريعا في ليلة من ليالي كانون الباردة كانت ليلة محاق غاب فيها القمر وأوى الناس إلى منازلهم باكرا وأخذ الزمهرير فيها يحتل طرقات وأزقة القرية والتي بدت بيوتها المعلقة في قمة وسفح ذاك الجبل الباسق والمضاءة بفوانيسها العتيقة كأنها نجوم تسبح في بحر السماء الرحيب وفي بيت أبو نجيب التفت الأسرة حول موقد التدفئة وآخذو يتحدثون ويتجاذبون أطراف الحديث عن ذاك الشبح الذي ظهر مؤخرا وأخذ يرمي بعض بيوت القرية بالحصى والحجارة ويثير الرعب وبالذات تلك البيوت التي خلت من رجالها ولم يعد يقطنها سوى النساء والأطفال فجأة صاح نجيب متحمسا إذن لي يا أبي أن نشكل مع الشباب نوبات حراسة على بيوت القرية التي تعرضت للرشق، أنا واثق أن هناك شخصا ما يفتعل تلك الأحداث، ليثير الرعب في سكان قريتنا المسالمة، لحاجة في نفسه. ارتشف أبوه رشفة من كوب الشاي الأحمر الساخن وتلذذ في طعمه راداً على ابنه في حيرة ،لقد فكر بعض رجال القرية بذلك ولكن الشيخ اعترض على الفكرة وقال أن الأمر لا يعدو كونه مجرد أوهام تتوهمها تلك العوانس والأرامل نتيجة الخلوة والوحدة التي يعشنها وإنه من الأفضل أن نبحث لهن عن أزواج بدلا من أن نشغل رجال القرية بهرائهن ووساوسهن، سكت نجيب على مضض، مبديا اقتناعه بكلام أبيه وقد عزم في قرارة نفسه أن يقبض على ذاك الشبح اللعين هو وأصدقائه ويسلمه للشيخ بيده، بدت تلك

الصخرة الضخمة التي قبع خلفها نجيب ورفقته عرفات وحيدر ومهيوب كوحش أسود مخيف ينتصب بشموخ ويربض سفح الجبل وبدا المكان موحش ومثير للخوف كانت الصخرة تطل مباشرتا على منزل الأرملة انشراح كانوا قد اختاروا موضع تمترسهم بعناية فائقة إذ يتيح لهم مراقبة المنزل من جميع جوانبه وقد وقع اختيارهم لمراقبة منزل الأرملة انشراح لكثرة ما شكت مما يجري لها كانت الأرملة انشراح في العقد الرابع من عمرها عليها مسحة جمال تتفجر أنوثة... مر الوقت بطيئا والأصدقاء يجلسون القرفصاء ويمسكون بهراواتهم الغليظة بأيديهم.. وأخذ البرد يلسع أجسادهم النحيلة السمراء وقد بدا النعاس يداعب أجفانهم وكانت عقارب الساعة تزحف نحو الواحدة ليلا وأخذت الوحشة تلف المكان عندما تناهى إلى مسامعهم خفق نعال وأنفاس مكتومة تصدر من قلب الوادي أصاخوا السمع جميعا وجلو بأبصارهم نحو الوادي وتمكنوا من تحديد شبح جذع رجل يخطو بحذر شديد وبيده كشاف صغير تارة يرسل أشعته ليستبين طريقه ثم يطفئه تارة أخرى، جرت الدماء في عروقهم واخذوا يغلو كأربعة مراجل صغيرة وأصبح الشبح تحتهم تماما كانت تضوع منه رائحة عطر عود قوي وأخذ يخرج من جيب معطفه حصى ويقذف الباب الخشبي للأرملة انشراح انسل نجيب وحيدر كثعبانين ماكرين ينقضا على فريسة آمنة حتى أصبحا تحته تماما في حين قفز مهيوب وحيدر خلفه كقردين ملسوعين وقبل أن يفيق جذع الشبح من المفاجأة كانوا قد شلوا حركته تماما وأزاح نجيب اللثام عن وجهه وهو يسلط عليه ضوء كشافه ولكنهم صعقوا وضل أربعتهم واجمين كمن رأوا شبحا

حقيقيا إذ أن الشبح لم يكن سوى الشيخ عفيف شيخ القرية المتصابي والمراهق بصدره المتأجج وأنفاسه العطشى والذي أخذت دقات قلبه تتسارع رعبا وخزيا، وأحس أن ما يحصل له ليس سوى كابوس ثقيل من كوابيس ليالي الشتاء القارسة.

دردشة

مضى عليه عام ونيف منذ أن تعرف عليها بالدردشة كان يعرفها بلقبها العفيفة وهي تعرفه أيضا بلقبه الوسيم وربما كان واقع الحال يبدو خلاف ذلك تماما وكان أول ما ساق التعارف بينهما حصل انه ذات ليلة شتوية باردة وهو في غرفته الطينية العتيقة والقذرة وفوق سريره المتهرئ والسكون يلف المكان إلا من زمجرة الرياح في الخارج وهو ملتفع بلحافه البالي أخذت أصابعه تعبث بأزرار الموبايل أرسل رسالة عبر خدمة الدردشة لو سمحتي ممكن أسأل سؤال يا ست البنات؟

كانت الرسالة كل.. لجميع المدر دشين وهو يتوقع أن تصل لبعض الذكور أيضا- وصلت لخمسة عشر مشتركا احد عشر ذكراً وأربع إناث تلقى بعض الردود القاسية والشتم من بعض الذين وصلتهم رسالته ورأوا فيها إهانة لرجولتهم كان متوقعا وطالما تلقى مثلها وكان يبرر ذلك بقوله (لابد من إبر النحل؛ لتذوق الشهد) مر الوقت وئيداً وعيناه مزوجتان بشاشة الموبايل وبدأت عيونه تحرقه وتتسلل منها الدموع من أثر ذلك التحديق المرهق بعد ثلاث ساعات وبينما هو في معمعة أفكاره وهواجسه وصلته رسالة من العفيفة :مساء النور تفضل اسأل؟ تهللت أساريره وبدأت الدماء تتدفق في عروقه من جديد وعادت إليه حيويته ونشاطه ونسي برده وألقى باللحاف بعيدا وأخذت أصابعه الماهرة والمدربة جيداً تتنقل بين أزرار الموبايل...

كان ضليعا بلعبة الأزرار والدردشة حتى دون أن يكلف نفسه عناء النظر لعبث أصابعه رد عليها: س/ لو هناك شخص مهذب حاب يتعرف بكل أدب واحترام ممكن؟ جاءه الرد بعد هنيهات قلائل: إذا بأدب ممكن أنت من أين وما اسمك؟

رد أنا أحمد من تعز وأنت؟

أني ملاك من الحديدة موظفة حدثني عن نفسك؟

توطدت العلاقة بينهما كثيرا خلال شهور وفتح لها عبر الرسائل آفاق كانت تجهلها.. وحدثها عن نفسه بكل عفوية ،وأرسل رقم موبايله وطلب رقمها لكنها لم تلبي طلبه وإن كانت قد اتصلت به من كبينة من الشارع عدة مرات استغرب كيف تخسر نفسها ومن كبينة لا يمكن أن تأخذ راحتها فيها وهي تعلل ذلك بقولها أن هكذا أفضل لهما وهي متدينة ومن أسرة محافظة وتصوم كل خميس وتقرأ وردها ولها أنشطة خيرية جمة تغلغل حبها والرغبة بها في أعماقه وهي كذلك باح لها عن حبه ورغبته في الارتباط كان يمقت ذلك الحياء والرهبنة المصطنعة التي تمارسهما عليه وخرسها فيما يتعلق بطقوس اللذة واحتمائها داخل شرنقتها..

فاجأته ذات يوم لم يستطع كبح غرائزه وهي تقرأ له همساً مقتطفات من ذاكرة جسدها..

أراد يوما أن تقرأ له أكثر وأن تتخطى مرحلة الهمس إلى البوح وأن تنتقل من مرحلة الحداثة المبهمة الغير واضحة الملامح إلى مرحلة السرد الجلي والواضح ومن المتن إلى شرح الحواشي كان يريد أن تقرأ له، ولو مقطع صغير عن الأعصاب الخفية أو ما يعرف علميا بمنطقة..

ال (mound) تمادى وتجرأ أكثر مع اشتعال الأورجازم واشتداد عنفوان الغريزة الحيوانية لديه ومع ثقته أنها صارت طوعة كالعجينة في يديه ووصلت لمرحلة التخمر حجزت لقبه حاول التوسل والاعتذار من شريحة أخرى لكنها كانت قد غيرت لقبها..

أراد الابتسام إلا أن شفتيه اليابستين عجزتا.

وأخذ في قرارة نفسه يحدث كيف أخطأت في تقديراتي ولم أستطع احسبها صح.

أنا خبير بالدردشة والنساء كيف لم تسلم بعد ،عمد إلى حق عاج صغير ممتلئ بالشرائح من مختلف الألوان والتقط شريحة صفراء وكل شياطين الدنيا تتراقص بين عينيه والإحساس الأبله بالهزيمة يعصف به ودسها في موبايله بعد أن أخرج الأخرى وكتب رسالة قصيرة حجزي وأرسلها إلى رقم8888 جاءته الأسماء التي حجزها سابقاً كان ترتيب لقبها السادس بين قائمة المحجوزات وكلهن من الإناث حيث انه لو حصل وغير مدردش لقبه المحجوز لديك في شريحة أخرى يظهر لقبه الجديد عند عمل كلمة حجزي، جف لعابه وبدأت كهرباء جسمه تعمل وحس بارتعاشه خفيفة ودقات

قلبه تتسارع وأطراف أصابعه تزداد برودة كأنها قدت من ثلج وهو يتطلع للقبها الجديد غير مصدق أنها تلك الناسكة الملتزمة والمتدينة التي خبرها أكثر من عام ونجحت في كل اختباراته المعقدة والتي يصعب خداعها. لعله اخطأ اخرج دفتر أجندة أرقامه وألقاب صديقاته وتأكد من صحت لقبها وتسلسله في قائمته كان لقبها الجديد عاشقة.. ا.ل.ج.ن.س.

حكايات من خلف الزبير[1]

كانوا ثلاثة شبان أكبرهم في العشرين من عمره التصقوا ببعضهم البعض؛ ليدفئوا أجسادهم النحيلة السمراء بحرارة أجسادهم الباردة كان... العصر يحتضر والليل يستعد بجلبابه ليلف المكان بالعتمة والرياح تزمجر بشدة محملة بغبار قفار تلك المنطقة كان عليهم أن ينتظروا طويلاً عند الزبير إلى أن يرخي الليل سدوله وتتشح الدنيا بالسواد ويحل الظلام الدامس لم يكن معهم ما يقيهم البرد والرياح العاتية سوى أسمال بالية وقد انتعل ثلاثتهم نعالا بلاستيكية رخيصة ومقطعة، ولم يكن معهم أي نقود أو ملابس أو مقتنيات سوى موبايلاتهم وقد فرغت من الشحن والتغطية وثلاث علب ماء بلاستيكية فارغة لقد أنفقوا كل ما بحوزتهم وما استدانوه في أكف المهربين الجشعين عديمي الضمير والأخلاق، والذين نصحوهم أن يتخلوا عن أكياس الدعاية التي يحتفظون بها بملابس احتياطية، وكذا معاطف البرد المتآكلة حتى لا يلفتوا نظر حرس الحدود إذا اجتازوا الحدود للجانب الآخر في الأرض الخضراء والذين القوهم بهذا المكان الموحش ورحلوا كان لكل واحد منهم قصة مؤلمة ومأساوية من آلاف القصص التي يزخر بها المجتمع اليمني الفقير الصابر والمثابر والمحتسب الذي طحنه الفقر ونخر جسده الجوع والعطش ووصل إلى حال يقول ألا موتاً يباع فأشتريه شعب كريم جار عليه

1 الزبير فاصل ترابي أو اسمني يفصل بين حدين أو بلدين ويستخدم كثير في القرى للفصل بن أراضي الفلاحين المتجاورة.

الزمن وتسلط على حكمه أسرة فاسدة وظالمة نهبت خيراته واستنزفت موارده لتتربع على عرش الثروة وتصل أرصدتها في البنوك الأجنبية لأرقام فلكية والشعب يرزح تحت وطأة الجوع والمرض كان حلم العثور على العمل بالجارة الشقيقة هو أكبر أحلامهم ليحلو مشاكل أسرهم الفقيرة والمعوزة اللاتي تركوها خلف تلك الجبال الشاهقة البعيدة في قراهم.

كان أحمد وناصر أخوة أما قيس كان من جيرانهم وهو يتيم أستشهد أبيه وهو يهتف بإسقاط النظام بإطلاق النار على إحدى مسيرات الثورة السلمية المطالبة بإسقاط النظام الغاشم الذي أجاعهم وامتص دمائهم وعرضهم للذل والمهانة في دول الأشقاء الغنية بالنفط والقسوة الخالية من الرحمة والنخوة كان قيس يعول أمه وإخوته الثمانية وجدته المسنة والمريضة لم يكن أولئك الصبية الذين قرروا الدخول تهريب للعمل يدركون ما سيلاقون من أخطار ومتاعب ولم يتوقعوا مواجهة أسوء ما مر بهم في حياتهم وحياة أسرهم من شظف العيش والشقاء تسللوا كثعابين تزحف بسرعة وخفة للانقضاض على فريستها وأقدامهم تتلمس طريقها في الصحراء الشاسعة بصعوبة وفجأة ارتطمت قدم ناصر بجسم مكوم في الأرض تحسسوا تلك الكتلة كان شاب يمني شهيد لقمة العيش من آلاف اليمنيين الذين يغادرون قراهم ومدنهم الآمنة بين دفء الأهل والأسرة ويأتون للموت في هذه البقاع الموحشة كأنهم كالفيلة الذين يذهبون للموت في مقابرهم الجماعية في مجاهل الغابات كان الظاهر أن الشاب أصيب بطلق ناري أطلقه عليه حرس الحدود من خلف الزبير عند الجانب من الأرض الخضراء.

بدا الخوف والتوتر وعلامات التردد تكتسي رفقتنا خاصة مع إقبال جماعة من الشباب الحفاة الشعث الغبر يلهثون، حيث أخذوا يرون كيف نجو من الموت بأعجوبة من غزارة الرصاص وبعضهم قتل ومنهم من وقع بالأسر وإنهم يتمنون لو أن زملائهم الذين وقعوا بالأسر أن يموتوا أفضل لهم بكثير من التعذيب الوحشي والمهانة التي يلاقونها من حرس الحدود المولدين والمستقدمين من بلاد البوذيين البعيدة والمخصصين؛ لاصطياد المتسللين اليمنيين حيث يعجز ضباط وجنود الأرض الخضراء المدلهين والبيض والسمان بكروشهم الجامدة والمستديرة والمتخمة باللحم والمشروبات من الركض وملاحقة أولئك البائسين وبينما تلك الأجساد المفزوعة والخاوية من الطعام والشراب في معمعة أفكارهم فيما يقررون العودة أو معاودة الكرة ، إذ فجأة أخذ ناصر أخ أحمد الصغير ذي الستة عشر ربيعا يعتري وينتفض من البرد وحرارة جسمه ترتفع وأحمد يحمله على أكتافه وبعض الشباب المنهزم من حائط الزبير يمسح جبهته ويسقيه ما بقي في جعبته من قطرات ماء لم تمهل الحمى الشديدة ناصر حتى الوصول إلى أقرب ديار الوطن وفارق الحياة وهو يوصي أخاه والخمسة عشر شاب أن يعودوا لأرض الوطن ويعملوا على تحريره من الظلم والفساد ، وأن الموت في وطننا بكرامة وعزة بين دفء الأهل والأقارب وظل حبهم وكرمهم أفضل من ذل الغربة وإهانة الغريب وأن الأرض الخضراء حقا جنة خضراء لكن تسكنها ال...

كانوا ينتحبون جوعا وعجزاً وقهراً وحزناً لذاك الجسد الذابل الذي قصفت رحلة الشقاء زهرة شبابه إن شهداءنا الذين سقطوا على طول الزبير خلفه

وقبله وتحت جداره المسلح سواء من فتكت بهم الأمراض أو من ماتوا صبراً أو من أردتهم رصاصات الغدر والخسة لعبيد أمراء الأرض الخضراء أو من قضوا تحت التعذيب في معتقلات الأرض الخضراء كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور القادم وسيظل الزبير وحكاياته البشعة والمخيفة وقصص الموت المحزنة التي خلفها لعنة في جبين الأرض الخضراء والنظام المستبد والفاسد في أرضنا إلى يوم الدين.

نظرية المرأة العالمية

منذ أن كان صغيراً كان عنيداً وصلبا ومختلفا عن أقرانه كان يحب أن يكون متميزاً كانت له مبادئه ونظرياته في الحياة وعندما كبر وأصبح شابا ناضجا كبرت ونمت معه مبادئه وأفكاره كان يضع لكل شيء قدره ولكل سبب تفسيراته، المرأة عنده لم يهملها أو يتجاهلها كانت تحتل عنده مرتبة رفيعة أسرف في وضع نظرياته عن المرأة وطبيعتها الفسيولوجية قام بها بنفسه خلص من خلالها إلى المرأة المثالية كان يرى أن ابنة الريف هي النموذج الرائع للمرأة المثالية نعم هكذا رأى، وأصبح مؤمناً بهذه النتيجة التي توصل لها.. ومن أشد المقتنعين بها والمدافعين عنها كل الشواهد والدلائل تدل على هذا وتؤكد صحة نظريته أو هكذا رأى، طبيعة الريف البسيطة وحياتها السهلة التي تجعل الفتاة قريبة من أسرتها وأهلها وارتباطها بأعمال الحقل والمنزل جعل منها بعيدة عن أدوات التأثير والانحراف لاسيما تلك القادمة من الغرب والتي كان يرى أنها العامل الأول في فساد المرأة وأخلاقيتها بل إنها تفسد الجمال الطبيعي لها كان يرتاح وتنفرج أساريره كلما أستعاد هذا الخاطر إنه الآن واثق تماماً من أن فتاة الريف هي المرأة المثالية حتى وإن كانت طامحة وتحب أن تعيش شبابها وتحقق أحلامها فهي بحدود الالتزام، طالما انتقد فتيات المدينة وهن بتلك الألبسة الغربية والفاضحة وأشمئز من تقليعات الموضة التي أصبحت تغشي الأسواق وتلك القطع من الملابس التي تشبه ملابس الأطفال.

وأصبحت الكبار لا تكف عن شرائها وارتدائها إنه خطر عظيم كلما ازداد التطور والتقدم انحسرت الحشمة وقلت القيم والمبادئ حتى وإن تحصن الفرد في بيته هو وأفراد أسرته من هذه المفاسد فلن يسلم منها في السوق والشارع والعمل لقد أصبحت منصوبة له في كل مكان- ينظر إلى الساعة في يده قاربت الرابعة عصراً إنه موعد الحفلة التي دعاه إليها صديقه سامي إنه من أسرة ريفية وحديث عهد بالمدينة وابتسم في سره هناك سيقابل في الحفلة العديد من فتيات الريف التي قدمن من الريف مع أهاليهن لقضاء إجازة قصيرة يقضين فيها وقتا ساحرا في المدينة وحضور الحفلة التي أقامها والد سامي- وعندما دق الباب وفتح له صديقه سامي الباب كانت في انتظاره مفاجأة بل صدمة العمر انهارت كل نظرياته وقيمه ومبادئه عن المرأة المثالية لقد كانت هناك مجموعة صغيرة من الفتيات التي اشمئز منها عمره وصوت الموسيقي الصاخب والمزعج يملأ أذنيه اندفع مهرولاً للخارج وصوت الموسيقى يدوي بأذنيه ويرتفع ويرتفع.

رخيصة

خرجت من سوق القات وأنا أحمل في يدي كيس قات كبير وأنا اتنزى عرقاً من شدة زحام السوق وجوه الخانق.. ووقفت عند ناصية الشارع وأشرت لحافلة ركاب كبيرة ،ولجت سريعاً كانت الحافلة مكتظة بالركاب وأخذت العيون تحدق في بفضول والذي تحول إلى حسداً فيما بعد كانوا ثلاثة عشر راكباً ، وفتاة قد توسطت الحافلة بمفردها منزوية بجوار النافذة الزجاجية وجلست بعيداً عنها بنفس الكرسي محاولاً التباعد قدر الامكان.. حتى بدأت إليتي تؤلمني بسبب الجلوس على حافة الكرسي شعرت بالتعب والإعياء ؛ بسبب الجلوس على حافة الكرسي ورغم معاناتي الشديدة من هذه الجلسة الشاذة والمعقدة والتي كنت أشعر أنني راكبا على أتون إلا أن عيون الركاب كانت تحاصرني وترمقني بحسد وحقد.

وكان كل اللذين في الأمام يلتفتون بمشقة وصعوبة من أجل الاطمئنان على حسن طويتي واستقامتي أما الذين في الخلف فقد كانوا على العكس تماماً فكانوا يرشقوننا وحسناء الحافلة تارة عبر مرآة السائق الأمامية وتارة عبر النظر مباشرة وكنت أحس بخبث نظراتهم تلسع أكتافي دفعني كل هذا الهمز واللمز والحركة المثيرة للركاب، وصوت صرير المقاعد إلى استراق النظر إلى الجالسة عن يساري فخدجتها بنظرة شذراء جانبية وكادت تفلت من بين شفتي كلمة استهجان ورجعت بذاكرتي إلى الوراء كانت نسخة طبق الأصل من تلك

الصور الكاريكاتورية التي تسخر من موضة عبايات النساء الحديثة والمرسومة بصدر بعض الصحف الثقافية والفنية، أعدت الكره مرة أخرى وبنفس النظرة الشذراء حتى شعرت بألم في عيناي من ذلك النظر الشاذ والخبيث فتصنعت أن بي ألم بالرقبة وأنني أعالج رقبتي وعلقت رقبتي على الجهة التي تجلس بها وبدأت أسحب نفسي من حافة الكرسي إلى وسطه كان منظرها جذابا وملفتاً للنظر وغريبا بجسدها المنسجم والمتناغم الذي يضج بالحيوية وعليها برقع صغير مطرز بفصوص فضية لامعة بطرفه على شكل حرف S بالانجليزي يكاد طرف ذقنها يبرز من تحته وكان بياض صدرها واضح للعيان أما نهداها القاعدان فقد كانا صلبين ونافرين بشكل مثير ومغري تماماً يسيل لهما لعاب الجياع من الشباب المكبوتين حتى ذلك الشيخ الفاني غرير النظر المحشور في زاوية الحافلة اليمنى كانت عيناه تقدحان شرارا وشراهة ورغبة مصوباً نظراته القاسية المرعبة على كتفيها النحيلين اللذين بديا كأنبوبة النارجيلة فحصتها بنظرة ثابتة هذه المرة وليست خاطفة كسابقاتها ووجدت في نفسي نوع من الشجاعة والنشوة واللذة كانت تتفجر شبابا وحيوية وأنوثة وتتأمل في بوقاحة ونقابها الصغير يتحرك ويهتز وكأنها تمضغ علكة من ورائه وكانت رائحة العطر تنضح من جسدها وقد عبقت الحافلة به والبخور يفوح منها ونزلت بنظري إلى يديها متفحصا وقد أرختهما على فخذيها وكأنهما أصابع موز مقشور وقد طلت أظافرها الطويلة المتقوسة بطلاء أظافر أحمر مغرى وكذلك الحال بالنسبة للقدمين اللذين برزا من خلف صندل أسود صقيل.

ازدرت لعابي وأخرجت موبايلي من جيبي بأصابع متوترة وأخذت أعبث به متعمدا في يدي لإبهارها رغم أنه من عائلة نوكيا الاحط قدراً واستغلتها الفتاة فرصة لتنطق أخيرا لتدخل المعرفة معي حين طلبت النظر له فمددته وأنا مفعم بالبهجة والسرور فدونت عليه رقما وأعادته لي وهي تبتسم كما لاحظت من ضيق عينيها أخيراً وصلنا إلى آخر نقطة للحافلات وتفاجأتُ أن عدد الركاب كما هو لم ينزل إلا واحد خلال الطريق لقد كانوا منسجمين ومستمتعين تماما بالنظر ومخدرين برائحة الحسناء الزكية متناسين أماكن نزولهم حتى لوعادوا مسافات للوراء مشياً على الأقدام نفحت السائق أجره أما بقية الركاب فقد دفعوا أجرتهم مسبقاً في محطة الحافلات.

ونزلت الفتاة أخيرا تسحب نفسها بخيلاء وترازن وأخذت تتثاقل في مشيتها وتتلوى كالثعبان في عرض الشارع وقد بدأت عجيزتها نافرة ومتورمة حتى يكاد لباسها الأسود يفلعها وأخذت تتطلع نحو السيارات الفارهة المارة بالشارع بنظرات ذات مغزى وتتسكع أمامها وأنا أنظر إليها من بعيد بتحسر حتى صعدت لسيارة مونيكا رصاصية اللون أخذت تنهب الأرض نهباً.

أهبل من بجاش

لم أذكر كم مرت من السنين ،على هذه الحادثة التي وقعت لي... ولكنني ما زلت أذكرها بكل تفاصليها.. وأذكر ذلك اليوم المنحوس، بالذات كان يوم سبت وأنا أكره السبت بطبعي؛ لسببين السبب الأول أنه يوم مملوء بالعمل وتكون فيه الشوارع مزدحمة جداً؛ والسبب الآخر هذه الحادثة المريرة التي كلما اذكرها تقض مضجعي وأشعر بانقباض بصدري، لكن لم أكن أتصور أن كراهيتي ليوم السبت ستصل إلى هذه الدرجة.

كان الوقت قريب الظهيرة والشمس بدأت تستعد لتتوسط كبد السماء وكان يتحتم على أن أعود إلى البيت لأستريح وأمضغ أوراق القات الخضراء الطرية و اللذيذة -نسيت أن أخبركم أنني أملك سيارة نقل مكشوفة أو دباب كما يسميه أولاد حارتنا أعمل عليه؛ لنقل الأمتعة والأثاث والبضائع للناس وأحياناً الخضروات والفواكه وعندما تضطرني الظروف أقوم بتحميل الصيد من مرفأ الاصطياد إلى السوق المركزي الذي ينتصب في قلب مدينة الحديدة أمام الكورنيش بباب مشرف، على الرغم من أنى لا أحب السمك ولا أتناوله إطلاقاً بالرغم من تناول ابنائي له بشراهة شديدة وأجلس متعجبا عليهم وهم يتشاجرون ويأكلونه حتى أننى أشفق على القط المسكين بدور، الذي جلبناه لطرد الفئران التي تستوطن كل بيت وحارة في مدينة الحديدة وذلك أنه حتى العظام التي من المفترض أن تتبقى له لا تسلم ولا يبقى له

شيء يأكله ويظل يصيح بغضب ويدور حول نفسه.. وأكثر ما اكره بالسمك زفارته الكريهة حيث تظل عالقتا بسقف وأرضية السيارة النقل وتمتد لأيام وأحيان لشهور وتكون سبب رئيسي؛ لقطع الرزق وتنفير الزبائن من الرائحة العفنة مما يضطرني إلى اللجوء إلى أسلوب المفاوضات لإقناع المستأجرين بتحميل بضائعهم على سيارتي النقل.

ولا أنكر أنني أعود أحيانا إلى كتب التاريخ والتراث وأقرأ خطب سحبان بن وائل وقس بن ساعدة وفصاحة الأعراب لأجيد فن الخطابة والبلاغة في إقناع الراكب والمستأجر بمزايا سيارتي وبأسعاري الزهيدة والمنافسة التي لا تقاوم وأحيانا أظل لساعات وساعات متسمرا أمام التلفاز لاكتشف السر في لباقة خالد الرويشان وجاذبيته وكلامه الذي كالسحر بل أشد منه تأثيرا، ومن أي كتب البلاغة والأدب اقتطفه ومالي لا استعيد تلك المفردات التي اكتبها يوما بأكمله وأحفظها وكيف تتبخر أمام الزبون ولا تتعجبون من أن نصف حي القرابية المشهور بالتجارة والبيع بالجملة يعرفونني ويتسابق مرتادوه والمتسوقون والمتبضعون وتجار التجزئة فيه للركوب معي، وذات مرة كاد يقتتل صاحب دكان عطارة وجزار، كل يدعي أنه هو الذي أشار إلي الأول.

وتعهدت للجزار أنني سأوصله بالمجان ورميت نحوه بشماغي أنا عند الله وعندك بجاه الله لا تضيع نفسك وتضيعنا معك، اخزي الشيطان وضع الساطور جانبا لا تسرح أحنا في داهية وشرعت أقبل رأسه ورؤوس خرفانه

الخمسة، وعجل سمين سادس. ووافق مشكورا، جزاه الله خيرا. مرت المشكلة بسلام ولكن، الله لا ألحقه خيرا! يبدو أن كلمة مجان قد أسعدته كثيرا واستغلها فرصة وجلس طوال اليوم يتنقل بي من مربع إلى آخر ومن سوق إلى سوق وسقف السيارة يزدحم برؤوس الماشية حتى غدى أشبه بحظيرة المواشي أو زريبة بهائم.

منه لله المفتري، كنت أتوقع أن يفرحنا حتى بمبلغ ضئيل أو لحمة رأس أو حتى كوارع لكني لم أحض حتى بالعظم منه يومها أدركت كم أنا غبي ومغفل وأحمق. وإن حبنقة وباقل لا شيء جنبي أو ربما أكون حفيدهم ومن نسلهم العريق بالعي والعته أو ريطة التي نقضت غزلها بعد قوة أنكاثا ربما تكون جدتي لأمي أو ربما لأبي من يدري؟! كان التعب قد بلغ مني مبلغه والحنق يملأ صدري وقررت أن استدين حق الغداء والقات هذا اليوم وارتاح بالبيت حيث اليوم يبشر بالنحس ولا داعي للخروج بالمساء، على أن أعوض في الغد وانفض عن عيني غشاوة الطيبة التي هي سذاجة بالأساس وألا أتساهل قط في قوت أطفالي.

وبينما كنت أقترب من المنزل وأنا في معمعة أفكاري التي قطعها صوت ارتطام عنيف بمقدمة السيارة وكان أعوذ بالله من غضب الله مسخ بشري! بشكل ابن آدم قبل أن أفيق من الفزع والخوف من أن أكون صدمته لم أجده إلا يقبل رأسي وأرجلي أن أوصله عاجلا كان من شكل أسماله البالية الملطخة بالزيت أو بالأصح المنقوعة بالزيت أنه يعمل إما مصلط أو بنشري

ومن تل الأثاث المنتصب بجواره يبدو أنه ساكن مطرود من قبل مالك البيت كان القات أبو حكال ملفوفاً بمنشفة مبتلة جواري ومزاجي غير صاف للعمل البتة والمسخ يرتجف توسلاً أمامي مثل الجيلي، وأنا مستغرب من معانقته الحميمة للقبعة التي أعتمرها برأسي وكيف لم يدوخ من رائحة العرق التي فيها ناهيك عن أنها لم تجد طريقها للغسيل مذ مدة طويلة فجأة أبرز ألفين ريال ورماها بحضني وباشر بنقل كراكيبه إلى سقف السيارة وأخيرا انتهى وصعد صافقاً الباب بعنف مستطردا المشوار قريب إلى الحراج في الحارة الثانية باب مشرف أمام قلعته الأثرية التاريخية -التي حولت إلى قسم للشرطة، وأهملت تماما قلت في قرارت نفسي فرصة سوف أتناول برمة لحم خاصة وأم الأولاد، والأولاد مسافرون في القرية في عرس، لكن ما كان يقلقني ويجعل وجيب صدري يرتفع هو التشابه الغريب بين أثاث المسخ وبعض قطع أثاثي المنزلي وأكثر ما يثير حنقي أننا كنت اعتقد أننا الوحيد الذي يفاخر بامتلاك تلفاز روسي قديم أسود وأبيض أحمر اللون وطلع الرجل الضبحان يمتلك مثله لكن الألفين الريال كانت كفيلة بمواساتي وقشع سحب الأسى من صدري.

فجأة عاد وجيب قلبي يرتفع وصدري ينقبض عندما تهيأ لي أنى الصورة المطموسة التي فوق الثلاجة كأنها صورة طبق الأصل من صوره. فإن دام الجديدة التي ألصقتها منذ بضعة أيام بثلاجتي وصلنا إلى الحراج وعقلي يعمل بسرعة يريد أن يستنتج شيئا ما ويقرر قرار لكنه مثل جهاز الكمبيوتر بانتوم 2 لا يقلع إلا بعد ساعة كنت ممنوناً جدا لريالات المسخ الكثيرة. وشعرت أن

قرارات التخلص من الغباء والسذاجة قد بدأت ملامحها ترتسم على أرض الواقع قبل أن يجف حبر توكيدها منذ هنيهات قلائل أنزلت معه الأثاث وساعدته بعد النقود التي أختطفها وأنطلق كصاروخ يجري، وكان قد نسي بمقدمة السيارة خلاطته ولحقته بصاروخ آخر وأمسكته من ياقة قميصه وكاد قلبه يطير وجلاً ومددت له بخلاطته وعادة أنفاسه تنتظم، وقال لي شكرا، هات مائتين وخذها لك مسامح بالباقي هدية لأمانتك وأخذت الخلاطة ونفحته المائتين وقفلت عائداً للمنزل وعندما أوقفت السيارة وغذيت السير نحو المنزل وصلت أتيت والباب موارب وغير محكم الغلق وأيقنت أنه ابني مكرد قد عاد من عرس ابن خاله ولم يعجبه المكوث بالقرية كأبيه بجاش.

وولجت للداخل كان البيت مكنس بإتقان والصالة عارية تماماً إلا من بعض الكراتين والقراطيس يداعبها القط بمخالبه، فجأة بدأت جبهتي تتعرق بغزار ة وجسمي يبرد بنفس الوقت وهذا يحدث لي عندما يقلع بانتوم2 في دماغي المتحجرة ويبدأ بالعمل بشكل سليم ولم أكن بحاجة إلي ذكاء، حتى هبنقة وباقل وأحمد شوربان يستطيعون أن يستنتجوا أننا نقلت أثاث بيتي بنفسي مع اللص وساعدته بالإنزال وعد النقود وكنت شهماً جداً وأميناً بملاحقته وإعطائه الخلاطة التي نسيها وكان هو كريما بالمثل ببيعها لي بثمن بخس بيعة سارق حتي عندما قررت التحرر من أغلال ومجاهل الغباء والسذاجة كنت أوغل فيها بكل قوة يا ليتنا لم أقرر التحرر منها، واقتنعت بالحاصل ربما كنت احتفظت بأثاث بيتي كما يقول المثل الشعبي حنك السوق مضربة هو ما حصل لي بالضبط أعتقد أننا استحق جائزة نوبل

للأدب وجائزة رئيس الجمهورية للإبداع الأدبي، لأننا أثريت اللغة العربية بمثل جديد وطازج أهبل من بجاش الآن كل من يرانا يبتسم بل ينفجر ضاحكاً.

الراتب

صف طويل من الناس والضوضاء تملأ المكان الكل قابع بمكانه ولا أحد يتزحزح من مكانه للوهلة الأولى يبدو أن الطابور من أجل الحصول على أكياس من القمح أمام مؤسسة أو ربما توزيع مساعدات لا... ليس هذا ولا ذاك اليوم هو نهاية الشهر إنه يوم توزيع الراتب يخف الزحام ويتقدم يعطي بطاقته يقبض راتبه الفرحة تملؤه والسرور يتراقص بين عينيه يهرول إلى البيت يحضر قلماً وورقة ويبدأ بتسجيل وتدوين الديون التي عليه من إيجار البيت والبقال والمقوت وماء وكهرباء... المجموع ينظر إلى الرقم الذي دونه غير معقول المبلغ كبير يفوق راتبه أضعافاً لابد أنه أخطأ بالحساب يعيد الحساب مرة ثانية نفس المبلغ بل تهيأ له أنه زاد قليلاً المرة السابعة بعد المائة أوراق الحساب تملأ الغرفة والساعة قد تجاوزت الثانية عشرة مساء عالم يشعر بالجوع إنه لم يتناول الغداء ولا العشاء.. يتوصل أخيرا للحل يمسك بالنقود يمزقها ويمزق مع كل ورقة يشعر بقلبه معها يتمزق يقوم بجمع قصاصات النقود يحتضنها ثم يجهش بالبكاء ثم يستغرق في نوبة من الضحك فيتفوق الضحك ويشمل الغرفة سكون مطبق ويظهر جيداً وقد غطته قصاصات من النقود.

بعوضة

أصلح من فراشه وسواه، طرح جسده المنهك على الفراش ورد اللحاف عليه غطى نفسه تماماً، بدأ الكرى يداعب جفنيه وعندما هم النوم أن يداهمه تناهى إلى مسمعه صوت أزيز بعوض لم يلق له بالاً وأستغرق في النوم أخذ البعوض يدور حول رأسه وصوته يئز أزيزاً حاداً، وأخذ يقوم ببعض الحركات الجنونية كأنه يحتج على هذا النائم، لسعه في يده التي بدأت تظهر من تحت اللحاف ولسعه في وجنته وأخرى في رقبته بدأ النائم يهرش موضع اللسع وهو نائم أول الأمر وبدأ يستيقظ رويداً رويداً وصحى تماماً وعاد هرش جسده ولاكن هذه المرة بعنف ثم عاود النوم وقد غطى هذه المرة جسده تماما وما أن بدأ الكرى يتسلل إلى جفونه حتى بدأ أزيز البعوض يرتفع فوق رأسه لم يعرها أي اهتمام.

وأسلم نفسه للنوم ولكن أخذ الأزيز يشتد خيل إليه أو هكذا سمع أن صوت البعوض هذه المرة يختلف وأنه تحول إلى هدير قوى أدرك تماماً أنه أقبح صوت على وجه البسيطة أقبح من نهيق الحمار وشحيح البغل، صوت البعوض من جهة لم يحدد مكانها، لوح بوسادته في الهواء وأعادها إلى تحت رأسه سريعا وشد اللحاف على جسده وغاص في فراشه، مرت دقيقة ودقيقتان خالهما دهرا ولم يسمع صوتا بدا يمن نفسه بالنوم وتسلل قلق خفي إلى نفسه راجيا ومتوسلا للكرى المجيء، وإلا يكون ما حدث قد أثر فيه وبينما هو في

حيرته تناهى إلى مسامعه أزيز البعوض وبحدسه الذي لا يخيب، وبأذن خبير أيقن أن البعوض لا يروم يدور فوق رأسه تماما ولكن هذه المرة لم يكن بمفرده بل جاء وقد جلب العشرات بل مئات الهمج الذين أخذوا يحومون حول رأسه وكأنهم قبائل بدائية تؤدي طقوس رقصة الموت قبل تقديم أضحية لمعبودهم الخرافي، نفض اللحاف عن جسده بقوة وتلمس طريقه في الظلام بحث عن زر النور وأضاء الغرفة، ولدهشته لم ير أدنى أثر للبعوض بحث تحت الستائر والزرابي نفض لحافه الملابس المعلقة على الجدران لكن دون جدوى وكأنه فص ملح وذاب في الماء جلس حيران لحظات أستأنف عملية البحث مرة أخرى كان مصرا أن يحسم معركته مع البعوض.

(لن يمروا)، طفق يتجول بأرجاء الغرفة ويذرعها ذهابا وإيابا وعاود النوم ولكن الكرى كان قد فارق عينيه وتعب من المبيت معه، وأستدعى أخاه الأرق أخذ يساوم الأرق ويتوسل إليه منتحباً أن يدعه وشأنه وأخذ يقسم له بأغلظ الأيمان أن لديه عملا في الصباح باكرا، ولكنه أبى وأصر على ملازمته وفي الساعة السادسة صباحاً قبل ساعة من ميعاد عمله رق الأرق لحاله وتركه بعد أن أستدعى أخاه الكرى وكأنهم أبطال فرق مصارعه يتبادلون دخول حلبة المصارعة، وصرعه الكرى سريعا وراح في سبات عميق أيقظته أشعة الشمس اللاهبة التي تسللت من النافذة وأخذت تنشر خيوطها الذهبية في أرجاء الغرفة، أنتفض مذعورا كعصفور ينفش ريشه الذي بلله المطر وهو يشعر بحرارتها بجسده وفي مخيلته أنها ذلك الكابوس المزعج الذي حلم به بإن بعوض ضخم يطارده ويريد يلتهمه رنا بنظره نحو ساعة الحائط كانت تشير إلى

الساعة الحادي عشر صباحاً صرخ بغيض مكتوم كشخص موتور أنا أكره البعوض أكرهه أكرهه.

الصديق

اندفع كالمجنون.. مغادراً المنزل.. بعد أن تناول فطوره على عجل ،وارتدى ملابسه دون، اهتمام لقد كان على موعد مع صديقه الحميم، إنه صديق العمر وصديق السمر ومجالس الأنس.. وصل إلى السوق باكراً، لم تكن الزحمة قد بدأت، كان هناك عدد قليل من الناس في السوق وعدد من الباعة المتجولين، وأصحاب المحلات، وعدد من المشترين، الوقت مازال باكراً وميعاده مع صديقه لم يحن بعد، ولكنه آثر أن يكون أول من يحضر وينتظر ،مخافة أن يقدم صديقه وينصرف لاسيما وصديقه لا يلتزم بموعد محدد فقد يتقدم أو يتأخر بل يبيت في السوق أكثر أوقاته... بدأت الزحمة تزداد ،وحركة السوق تنشط وأعداد كبيرة من السيارات تقبل على السوق ووسط كل هذه الزحمة رأى صديقه مقبلاً مرتدياً حلة خضراء قشيبة والناس تفسح له الطريق بإجلال وتقدير، حتى دخل أحد المحلات والناس ملتفون حوله، راح يعبث في جيبه ويخرج كل ما بحوزته من نقود، وعن رضى نفس وطيب خاطر، دفعها لصاحب المحل وأخذ منه ربطة قات الآن فقط. خف توتره.. وعاد أدراجه.. إلى المنزل.. والابتسامة.. تعلو شفتيه.

صفعات

بعد أن صارت حديث الناس وشغلهم الشاغل وحيك حولها الأساطير والحكايات.. ولاكتها الألسن كثيرا.. إنها حكاية العم محمود وصفعاته الجهنمية الرنانة..

هكذا صارت حديث كل القرية ذلك الكهل الظريف ابن البلد الشهم والأصيل الكريم والنبيل وابن النكتة، اللطيف، حلو المعشر ونديم الجليس. وذلك بما يتمتع به من دماثة خلق وطيبة شديدتين تصل لحد البلاهة.. لكن كانت به خصلة مقيتة ومذمومة لم يستطع التخلص منها إطلاقاً ولطالما جلبت له المتاعب وأوقعته في المشاكل والورطات العويصة هي سرعة غضبه عندما يستفز وليت الأمر يقف عند مجرد الغضب لكان مقدوراً عليه، ولكنه يتبعه بصفعة مباغته ومدوية من يده اليسرى السمراء الخشنة والمعروقة، ترتسم حقول أصابعه الخمس في وجه ضحيته لعدة أيام أخاديد محمرة ومتقطعة يترنح من شدتها وتصطك منها أسنانه ويرتجف جسده كالحلاوة الصوري.

ومنهم من يصاب بالحمى ويلازم الفراش لأيام.. وحالة واحدة نادرة لامرأة ابنه شهدت إغماء فضلاً عن ذلك الدوى الذي تحدثه كطرقعة المتفجرات، وقبل أن يستوعب أيا من الحضور الذين يصادف وجودهم مكان الصفعة يكون قد أختفى كفص ملح وذاب في الماء، وقبل أن يتمالك القوم أنفسهم ويجتمعون ويقررون لاتخاذ إجراء تأديبي بحق العم محمود، حسب ما يقتضيه

العرف السائد في القرية، يكون هو قد سبقهم وهو يقود كبشاً مقرناً يجرجره خلفه على استحياء وقد أستعاد طبيعته انخجولة الطيبة وينادي، من تحت أسفل دار المصفوع.

أنا غلطت وهذا مقصدي، وذات مرة ،بعد يوم شهد مراسم الاعتذار والتسامح لأحدى صفعاته الشهيرة وبعد أن بلغت حدا التحول إلى ظاهرة وعادة وصار كل شخص في القرية يحسب لكلامه ألف حساب ويراجع كل كلمة تخرج من فمه في حضرة عمنا محمود، وصارت الوجوه تخشى على نفسها أن يحرثها بتلك الأصابع الغليظة الرهيبة ،وقد شارفت زريبته على النفاد من الماشية..

قرر شباب القرية أن يذهبوا ليلة الجمعة للسمر عنده وسؤاله عن تاريخه في الصفع ،ومتى أتقن هذه العادة السيئة وبعد العشاء بقليل كان شباب القرية يغذون السير تحت قبة الليل، ينشدون دار العم محمود وكان أول الواصلين هما فؤاد ومنير اللذان أخذا يصفران بنغمة معينة اشتهرت عنهما ويعرفها كل القرية.

وأطل العم محمود برأسه من غرفة المفرج التي تحتل الدور الأخير في الدار بكوفيته الزنجباري التي أكل العرق نصفها مرتدياً فانيلا بيضاء ممسكا بيده قصبة المداعة[2] التي أخذ يجر منها نفسا.. قبل أن يصيح بصوته الجهوري

2 المداعة: نارجيلة للتدخين من صنع محلي يتم صنعها من الاستيل والنحاس مخروطية الشكل ولها فتحة بأعلاها لوضع التبغ المحترق وأخرى بأسفلها لتدخينه وجره بواسطة أنبوب وقاعدتها عريضة عبارة عن دورق به ماء لتخفيف حدة الاحتراق.

الأجش.. أدخل الباب مفتوح دفع الأصدقاء الباب الخشبي الأحمر العتيق والضخم الذي أصدر أنيناً وصرير مزعجاً وتدفق خمسة عشر شاباً وأخذوا يرتقون الدرج الحجري المستدير والحلزوني بلهفة ومرح والذي يوصل الى المفرج في علية الدار مجتازين عددا من الغرف والسراديب، حتى استقر بهم الأمر في غرفة المفرج أو الديوان الطويل والضيق فتحو ربط القات وبدأت الأيدي تعمل فيها والوجنات تمتلئ بالعشب الأخضر الطري وتستدير ،وهناك سأله أحدهم لو تكرمت يا عم محمود ممكن تقول لنا متى تعلمت الصفع؟ تبسم العم محمود وأصلح من جلسته وأخذ نفساً طويلاً من أنبوب المداعة الممتد أمامه كثعبان كسول بعد زرد فريسة دسمة واستطرد هي حكاية قديمة تعود لأيام الشباب حيث ذهبت أنا وقاضي القرية الحاج عبده إلى صيد العقاب بالهيجة[3] البيضاء.

وهناك بدأنا نبحث عن طيور العقاب كانت منتشرة بكثرة حيث كان موسم تواجدها الأمر الذي يبشر بصيد وفير ولكن كما يأتي الحظ الطيب يأتي معه الحظ العاثر حيث حصل مالم كن بالحسبان ونغص علينا رحلة الصيد التي كانت قد كللت بالنجاح واصطدنا عدد من طيور العقاب والأوبار البرية وكنا نهم بمغادرة الهيجة لولا أن رأي القاضي عبده طائر عقاب ضخم بني اللون لم نري له مثيلاً من قبل وكان يعطينا ظهره ومطرقا للتربة يبحث عن رزقه ونصب القاضي البندقية التشيكي فوق صخرة منخفضة وعندما اطمئن

3 الهيجة: هي الفرجة بين نتوئين من جانب الجبل ومسقط من مساقط السيل التي تنحدر إلي الوديان وهي كثيرة الأشجار وقد تقام على جانبيها المدرجات الزراعية وتكثر فيها الطيور والحيوانات البرية والحطب.

تماماً من وقوع الطائر في مرمي البندقية ضغط الزناد وسمعنا صوت ارتطام الرصاصة بجسد مكتوم ؛ ولأن مهمتي جمع الصيد انطلقت بسرعة البرق وعندما وصلت إلي حيث من المفترض وجود الطائر صريعاً صعقت وألجمت المفاجئة لساني وجف لعابي من هول ما رأيت.

لقد رأيت وتوقف العم محمود عن ألحكي كمن يريد أن يلفت الشباب إلى هول ما شاهده ويشاهد وقع الأمر عليهم وبدأ يحشي فمه بأوراق القات ويرتشف جرعات من الماء اتبعها بشرب فنجان قهوة واخذ يجر عدة أنفاس من المداعة وسط صمت الجميع إلا من قرقرة المداعة التي أخذت تصدر أصوات مرعبة أشبه بحشرجة شخص يحتضر، واستطرد صعقت وتملكني الخوف والرهبة حيث شاهدت نسناساً صغيراً يتخبط في دمائه ويرنو إليا بعيون ذابلة بدا بريقهما يخفت وفي داخلها توسل واستعطاف لي أن أنقذ حياته.

وبدا وجيب قلبي يرتفع حيث كان النسناس بتصرفاته أشبه بطفل من البشر لا قرد صغير وصرخت بأعلى صوتي يا عبده هذا قرد صغير مصاب وليس عقاب فلم يصدق وأشار لي الخبيث بيده أن أرفعه للأعلى ليراه، وقبل أن أخذه بحنان بالغ وتأنيب ضمير انشقت الأرض عن حلقة جهنمية حولي من عدد من القرود لا يقل عددهم عن الخمسين وقبل أن استوعب الأمر أو حتى اصرخ طلباً للنجدة لم أدر إلا وعشرات الأيادي البشعة والمشوهة ذات الشعر الخشن ورائحة عطنة غريبة تنبعث منها تنهال عليا صفعا بالوجه

والظهر والرأس كان مهرجاناً للصفع بمعنى الكلمة، منظموه أقبح وأكره الحيوانات على وجه الأرض أخبث ما خلق الله.

وكنت خائفا جدا من أن يتهوروا ويقدموا على أعمال شيطانية معيبة ومخجلة إذ طالما سمعت بطفولتي عن أفعالهم الدنيئة من عجائز القرية. وقبل أن يغم عليَّ من وطأة الصفع أخيراً جاء الفرج على شكل طلقة مدوية أطلقها القاضي عبده في الجو وحينها لاذت تلك الرباح اللعينة بالفرار وقد أخذوا جريحهم المدبر معهم وقد تلاشى كل أثر للرحمة والشفقة عليه من قلبي لم تكن تلك الصفعات كالتي تتلقوها وتشاهدوها مني اليوم كان وقع أياديهم كالمطرقة بوجهي وجسمي وتطلع صوت قعقعة قوية تعكس صدى في الجبال المحيطة بالهيجة وتورم وجهي وامتلاء جسمي بالرضوض كانوا أشبه بآلة صفع قردية ، ويصفعون بإتقان وضمير متآزرين في عملهم دون تقصير وكانوا إذا تعبوا يتناوبون الصفع . يقعد القرد الذى كلت يده من كثر الصفع ليحل محله آخر قد نال قسطه من الراحة تماما كما تشاهدون هذه الأيام في مباريات كرة القدم من تسليم كل لاعب لزميله عندما يجهد وقد نال إعجابي أدائهم الباهر وبطريقة عملهم الإدارية المنظمة.

وكان لديهم عيلوم يقوم بتنظيمهم كأنه مدرب فريق أولمبي أربعة أربعة اثنين واحد ومنذ ذلك اليوم العجيب استقرت في نفسي رغبة عارمة للصفع خاصة وقت الغضب وأول صفعة وجهتها في حياتي للقاضي عبده لتأخره في حشو البندقية وتخليصي من براثن القرود المتوحشة – مر الليل سريعا وانفض

السمر وضحك الشباب حتى الثمالة واغرورقت عيونهم بالدموع من شدت الضحك وبقيت حكاية عم محمود من أعجب ما سمعوه في حياتهم وهم بين مصدق ومشكك في تلك الصفعات.

خريج جامعي

حمل ملف التخرج من الجامعة في يده ومعه أوراق أخرى أتجه نحو بناية شاهقة الارتفاع أخذا يرتقي السلالم وشريط الذكريات في عقله يدور ويدور كانت قد مضت سنوات على تخرجه وهو يبحث عن وظيفة. لقد تعب من كثر اللف والسير طوال اليوم في الشوارع وتجاعيد الزمن يوما بعد يوم تخط المزيد من عروقها فوق ما بقي من شبابه ملَّ من كثر الوعود انفق كل ما بحوزته واستدان لأجل الحصول على الوظيفة تذكر زميله عمر الذي توفي منذ خمس سنوات وطلعت وظيفته في السنة الماضية وتذكر جاره سعيد الذي طلعت وظيفته بعد فوات الأوان وكان قد فقد عقله تذكر يوم أن بشره بطلوع وظيفته، وهو يتوقع أن يعود له عقله كيف ضحك بهستيريا واستغرق بنوبة ضحك واختفى من يومها ولم يعثر له على أثر.

عندما وصل إلى مكتب التوظيف كان المشهد يتكرر أمامه لعشرات المكاتب والكلمات التي سئمها- اطرح عنوانك ورقمك وسنتصل بك وشوشات وهتافات تناديه ليستمر في الصعود للأعلى تجاوز مكتب التوظيف استمر بالصعود إلى أعلى بئر السلم وعندما وصل إلى سقف البناية كانت ابتسامة تتكسر على فمه، سقط باليأس وبأسفل البناية كانت هناك بقايا روح تخيط جرح الشارع تحت حوض السماء وقد تناثرت الأوراق من حوله ويده

ممسكة بملف أحمر بالي تبقت به ورقة تشير إلى سنة تخرجه كان قد تخرج منذ عشرين عاماً.

الكاميرا

اعتادت أن تلتقط زبائنها كل يوم في ذلك الشارع الهادئ الصغير والجانبي، حيث كان يسوده الأمان والطمأنينة، وقد ارتصت على جانبيه بشكل بديع ومنسق أشجار الزينة وأعمدة الإنارة.

كان بعيدا عن أنظار شرطة الآداب وألسن الناس والفضوليين، وقفت تحت إحدى تلك الأشجار وقد ارتدت أجمل ثيابها وفي أبهى زينتها. وكانت ترتدي حذاء بكعب عالي أسود اللون وتنورة حمراء مغرية، وقد انحسرت فوق ركبتيها والتصقت بجسدها بشدة وأبرزت عجيزتها للخلف حتى يخيل للرأي إنها جزء مستقل عنها تماما كواجهة الطاووس أو تم إلحاقه بها، وتلبس قميص نسائي سكري يوحي بأن أزراره قد تطايرت ولم يتبق سوى زرين مجهدين يقاومان ذلك النفور الشديد لتلك الأثداء الضخمة الشبيهة ببطيختين كبيرتين من النوع الكروي وبحلمات مستقيمة وغليظة وقد بانت حولهم هالة بنية بحجم قطعة النقود الحجرية فئة العشرين ريالا، وبديا بتلك الهيئة كنخلتين نمتا في جزيرتين صغيرتين. كان منظرها الشبق يثير أكثر الرجال صلاحا وتقوى بذلك اللحم المكتنز والجسم الرجراج البض والطري الذي يمور بالصحة، أشعلت سيجارا وزفرت دخانه في الهواء فتصاعدت حلقاته في الجو.

لمحت سيارة مقبلة في رمح الشارع تقترب رويدا رويدا. دبَّ النشاط في جسدها بغتة وخطت نحو كبد الشارع الذي كان خاليا من المارة

والسيارات في تلك الساعة المتأخرة والليل يحتضر ويلفظ أنفاسه الأخيرة بدت خطواتها أشبه بخطوات القط وأخذت تمايل متعمدة أمام السيارة التي أصبحت خلفها تماما تجاوزها السائق ووقف مقابلا لها ودعاها للصعود كان شابا متفخل في لباسه وسيم في بداية العقد الرابع من عمره. انحنت على حافة النافذة وقد اتكئت بساعديها عليها فهبطت قطعة ملابسها التي تحمي صدرها وبرزت تلك البطيختين الهائلتين بكل عنفوانهما يهتزان ويتهاديان كطفلين رضيعين نائمين في أرجوحتيهما. لم يكن ثمة شيء تحت تلك القطعة اليتيمة من الملابس فكان منظراً مذهلاً، فقد الشاب على أثره صوابه وبدأ يساومها بمبالغ ضخمة متوسلا يكاد يبكي ،وعند مبلغ معين فتحت الباب وصعدت بثقة وكبرياء، وانطلق الشاب المسكين الذي أرهقه المنظر المثير بسرعة جنونية خلفت من ورائها العجلات صريرا قوياً وتصاعدت رائحة إطارات محروقة من عجلات السيارة.

انطلقت السيارة تشق سكون الليل حتى توقفت أخيرا أمام أحد الفلل الجميلة والضخمة في ضاحية المدينة ونزل مترنحا ومنفعلا يفتح الباب منحنيا بحركة تمثيلية مشيرا بيده كمن يوسع الطريق تفضلي يا أميرتي وضعت قدميها على عشب الحديقة اليابس.

كان الظلام دامسا والمكان يوحي بالرعب والخوف. وطلبت منه أن يضيء الأنوار ضغط زر في مدخل الفلة فبدد النور عتمة المكان وأن كان لم يبدد خوفها وتوجسها، وفتح الباب بالمفتاح وقادها مباشرة إلى باب غرفة النوم

وهمس لها أن تدخل وسيذهب للمطبخ يحضر فاكهة لذيذة وشراب منعش ويعود، قبل أن تدير مقبض الباب خيل لها أنها تسمع صوت صفارات سيارة الشرطة أو هكذا هيئ لها أدارت المقبض وولجت للغرفة متحسس الجدار للبحث عن مفتاح النور وجدته بعد ثوان ضغطت بارتباك وعندما استدارت وقبل أن يقع نظرها على السرير أطلقت صرخة مرعبة ومدوية شقت سكون الفلة حيث كانت جثة رجل خمسيني ملقاة في السرير وقد انغرست في صدره سكينا كبيرا ويسبح وسط بركة من الدماء، وعيناه جاحظتان بشكل مخيف ،اندفع فجأةً من الباب عدد من رجال الشرطة.

وقد وضعوا قيودا في معصميها في حين شرع البعض في تصوير الجثة والغرفة وآخر يفحص معصم القتيل ويجس نبضه لم تتمالك هول الفاجعة وخرت مغشيا عليها ، عندها ومن غرفة جانبيه تطل على المنظر ومن خلف ديكور الستارة التي تفصل الغرفتين صاح أحدهم... الطبيب، اندفع نحوها الطبيب وهبَّ المقتول واقفا يطمئن عليها.

حاول الطبيب إفاقتها وجس نبضها لكنها كانت قد فارقت الحياة حيث تعرضت لجلطة مفاجئة بالدماغ سببها الرعب والخوف المفاجئ.

طفل الحجر

هناك فرق كبير بين طفل الحجر الذي يقاوم العدو في فلسطين المحتلة وبين طفل الحجر في حارتنا.

فالأول هو طفل مناضل يدافع عن قضية عادلة في وجه قوى الشر.. أما طفل حارتنا فهو الشر بكله ،وهدفه الشر، والطفل الأول هو عرضة للإرهاب الصهيوني ولا يجد من يحميه، أما طفل حارتنا هو الإرهاب بعينه والطفل الفلسطيني عرضة لممارسات الصهيونية الوحشية، وطفل حارتنا هو من يمارس الوحشية مع السكان الضعفاء، الذين يكون غالبتهم من المستأجرين الجدد، الذين يدخلون الحارة يتوجسون خيفة رغم كل تلك الفروق.

1. هناك شبها واحد وعامل مشترك يربط أطفال فلسطين بأطفال حارتنا وهو أن كل منهما يتسلح بالحجر وشتان بين حجر المقاومة وحجر البلطجة وحتى تعرفوا أطفال الحجارة بحارتنا عن قرب كم هم حقراء وأشرارا ومجرمين وليس بينهم وبين الطفولة وما تحمله من براءة أي صلة إطلاقاً سأحكي لكم هذه القصة المأساوية عن بائع الطرمبا المسكين الذي فقد رأس ماله كاملاً بضربة حجر طائش سقط من علو كنيزك محترق؛ ليستقر في منتصف ماعون الطرمبا الممتلئ ويختل توازن الماعون الذي ممسك به البائع البائس بيد واحدة أعلى كتفه ليهوي من

علو شاهق ويرتطم بزقاق الحارة المتربة وتمرغ تلك القطع اللزجة والدبقة بالتراب وبغتتا وكأنما الأرض انشقت عن دستة من الأطفال قواه الشكيمة الذين لا يخذلونك أبدا في مثل هذه المواقف الحرجة وانقضوا على الطرمبا المتناثرة والممزوجة بالتراب واختلط الحابل بالنابل وشيئا فشيئا أخذوا يشكلون تلاً بشرياً نبت في وسط الحارة متخذاً من الطست المسحوق تحت أجسادهم الهزيلة والقذرة نقطة ارتكاز كل هذا والبائع المسكين يغالب دمعة في عينه أرادها ألا تنزل وتكسر رجولته ولكنها خانته وهربت غصباً عنه، ويعلم الله أن ما قضى عليه الأولاد هو دين استادانه ليعمل ويسد رمق صبيته الصغار ولم يكن ملكاً خالصا له- لعلكم تلقون باللوم علينا كشباب كبار في الحارة وتقولون أين ذهبت المروءة والنخوة وإغاثة الملهوف منا ،صدقونا حاولنا كثيرا وبمعية رجال صالحون في الحارة أن نوقف هؤلاء الغوغاء عند حدهم وأن نحمي المسكين وغيره الكثير والكثير... ولكن القدر كان أسرع والغريب في الأمر أن طفل الحجر في حارتنا لا يعادي إلا الغرباء فقط والقاطنين الجدد في الحارة أما مع السكان الأصليين والقدماء فهم كالحملان الوديعة أو بالأصح يكونوا كدموع التماسيح ،كان صك الأمان للسكان الجدد أن يكون لديهم أولاد سرعان ما يندمجون مع أولاد الحارة ويوقعوا معهم معاهدة عدم اعتداء ويشاركونهم الأذية والأعمال الصبيانية ضد الغير وبه يضمن الطرف الجديد على الحارة سلامة بيته من الاعتداء وسلامة

ملابسه على حبل الغسيل وعدم وقاحة أولاد الحارة مع النساء وكفهم عن الغمز والهمز واللمز لهن أثناء خروجهن من البيت، والاحتفاظ بنوافذ المنزل سليمة وكذا ظهرك ورأسك لا يمسهم حجر بسوء وعليه يكون الطرف المقابل ملتزماً بالمشاركة في التعلق بمؤخرة السيارات المارة من الحارة خطف ما تقدر عليه يده ما تحتويه السيارات المكشوفة من منجا وطماطم وخضار وفواكه ونحوه .

والالتزام بنظام القسمة المشاع بقي لدى الكثير من القصص المأساوية المحزنة التي لا تقل حزنا عن قصة البؤساء واوليفر تويست وريمي لا أدري من أين أبداء هل من عند صاحب الحافلة الميكرو باص الذي كسرو له زجاج المقدمة وإلا بائع الفستق والزبيب الذي نهبوا نصف رأس ماله بحجة التذوق وإلا الحَجة عافية التي سرقوا خروفها الصغير من أمام المنزل بعد أن فكوا وثاقه وذبحوه بغطاء علبة تونة غويزي وذهبوا يحندوه في مخبازة غانم، أَم حكاية صاحب الموز الذي خطفوا ميزانه وباعوه لمرشد النصاب صاحب البقالة التي في مدخل الحارة الذي إذا استدنت منه بعشرين ريالا تتضاعف عنده مثل البكتيريا إلى ثمانيين ريالا، لن أعكر صفو مزاجكم وأنكد عليكم بالقصص المحزنة والمأساوية التي يخلفها ورائهم أولاد حارتنا سأختم معكم بقصتي يوم نقلنا إلى هذه الحارة ، ومنه لله ذلك السمسار المكار والمخادع حمود الحلاق، رغم أنه عاش في هذه الحارة ثلاثين سنة وحسب قوله أن طفل الحجر في هذه الحارة قد ظهر قبل طفل الحجر في فلسطين الذي ظهر في انتفاضة الحجارة الشهيرة عام1987م.

وإن المقاومة في الحارة لا أحد يعلم متي ظهرت بالتحديد ويحكى انه كان في طفولته من أبطال الحجارة وخاض معارك طاحنة وكان ماهرا يلعب بالبيضة والحجر دون أن تنكسر البيضة وأنه كان يسدد رميه متقنة لرأس عكفي الإمام ولا يخطئه مطلقاً ،ويصلح من جلسته منتشياً طالما تسبب بحبس أعيان الحارة ورجالها بسبب أحجاره الطائشة وأن الأمر كان سهلاً بالنسبة له وشج الرأس كأنك تفتح بطيخة ،حكى لي هذا المفتري هذه القصة فيما بعد حصولي على صك الأمان من الأوغاد الصغار الملاعيين كان همه أن يأخذ حق الدلالة غير مكترثا بما جرى لنا من الويل أذكر حينها أول ما وصلت شاحنة نقل الأثاث أمام منزلنا المُستأجَر وقد أجهدنا أنا وأبي وأخي بالنقل أن عَرض علينا أطفال صغار لطاف المساعدة وقبل أن نرد عليهم كانوا قد باشروا العمل وكم كنت ممتن لهم وأثمن تثمينا عاليا تلك الروح الرجولية في طفولتهم وعندما انتهينا وشرعنا بالترتيب لاحظت أمي منسوب العفش انخفض نوعا ما وبالجرد والحصر اكتشفنا اختفاء أسطوانة غاز منزلي ومسجلة وساعة حائطية وبرميل صغير ،قدح حبوب دخن وقبل أن يستوعب أبي أمر ما جرى كان الباب يدق وكان حمود الحلاق يطلب باقي حسابه، ولكن أبي كاد يخلص روحه وهو ماسك به من ياقته وهو يصيح هذه الحارة التي قلت أنها حارة أمان ناسها طيبين وتنام وباب بيتك مفتوح، وتمكنا أنا وأخي من إنقاذ حمود الحلاق الذي قرر التنازل عن باقي دلالته ومضى لحال سبيله وبينما انتهى من كتابة هذه القصة لكم شاهدت من النافذة جموع غفيرة من الأطفال لا حصر لهم تمر من تحت المنزل ومن

ضمنهم أخي الصغير سالم مهللين ومكبرين الله يكون في عونه لا بد انه مستأجر جديد ساقه حظه النحس لحارتنا.

يموتون بؤساء

دمرت الحرب كل شيء وقضت على الأخضر واليابس أخذ فرح يتأمل ما تبقى من أطلال منزله وهو يغالب دموعه التي تساقطت من عينيه رغما عنه وأَخذ يطوف في أنحاء ذلك الركام ويستعيد حياته الجميلة الهادئة قبل أن يرحل محمد سياد بري عن الحكم ويرحلان معه السلام والسكينة هنا كانت غرفة الاستقبال وهنا كان مكان أبي المفضل وهناك كانت تقعد أمي تعجن لنا وهي تغني بتلك الأغاني الصومالية الجميلة التي طالما أحببتها. آه كم أشتاق إليك يا أمي وكم أحن إليك يا أبي. وقفز إلى خراب آخر هذه غرفة أخواتي الصغار هنا كانت تضحك وتكركر ملأ البيت أختي الصغيرة خدوج ذات العامين وهناك كان قاسم يقعد يتفرج التلفاز كم كان شغوفا بأفلام الكارتون وقعت عيناه على بقايا لعبة ممزقة لخديجة وازداد جريان الدموع في عينيه : لا لا استطيع البقاء بكى يا مقديشو لا مكان لي بعد أن دمرت الحرب حياتي وقتلت أسرتي وتركتني وحيدا أقاسي لوعة الشوق والحنين لماذا أنا الوحيد الذي نجوت من تلك المجزرة البشعة ؟! ليتنا مت وعشتم أنتم يا أبي وأمي وإخوتي يا تاج راسي يا أحب إلي من نفسي روحي فداكم آه آه سأرحل غدا صباحا مضى عبر أزقة مقديشو الترابية الجافة حتى وصل إلى إحدى مدن الصفيح التي تكونت بعد الحرب الشرسة التي اندلعت العام1992م.

وقف تحت إحدى العشش المبنية من بقايا المجنزرات والسيارات التي احترقت بالحرب و نادى على شولوف خرج شولوف الفارع الطول الهزيل وقد اشتمل بفوطة صفراء مزركشة فاقعة اللون وكان يرتدي فانيلا بيضاء بعلاقي خرج وهو يهش الذباب الذي يحوم حول وجهه وهو يغالب النعاس وعندما أبصر شولوف العملاق فرح قال في ضجر ويش فيك فرح أش تشتي هذا الوقت؟ رد عليه فرح سأسافر غدا صباحا إلى بربرة وسأهاجر إلي اليمن لم يعد لي عيش في الصومال كل أسرتي ماتت وبيتي دمر ومزرعتي أحرقت ولا يوجد عمل والجفاف قضى على ما بقي لي من ماشية نجت من الحرب ماذا اجلس أعمل هنا لا ماء لا كهرباء لا أمن لا استقرار؟!

وعصابات حركة الشباب تسلب وتنهب من بقي له شيء يقتات به سأسافر بعد صلاة الفجر إلى بربرة وفيها سألتقي بالقرصان إدريس وسأعطيه أسورة ذهبية تعود لأمي رحمة الله عليها و التي نجت من دمار منزلنا بأعجوبة وسألتقي به حدثني عنه صلاد ابن عمي الذي رحل منذ سنوات وهو الآن يعيش في اليمن يغسل السيارات في صنعاء اليمن بحي يدعى الصافية وعيشته جيدة بل من حديثه قال أنها صومال نبتت بوسط صنعاء ويطلق عليها اليمنيون مقديشو لقد شوقنا للرحيل والهجرة بل إنه جاء بوقته لينقذنا من كل الحزن والآسى الذي يحيط بي ويعتصر قلبي ويفتت أكبادي وسحب الذكريات التي تكاد تصيبنا بالجنون حتى كدت أهلك شوقا لأهلي الذين اقتنصتهم يد المنون والعصابات المتناحرة طار النوم من عين شولوف وانفجر ضاحكاً مستطردا إلي أين سترحل يا أخي فرح اعد عليَّ ما سمعته. قال فرح وش فيك أخي

شولوف ؟ قلنا لك لليمن هي لا تبعد سوي رمية حجر عن بربرة وهرجيسة كتم شولوف ضحكته وقال كان الرحيل في الماضي ممتعا وجميلا إلى اليمن أيام كانت منظمات الإغاثة والأمم المتحدة يهتمون بنا ويلقون لنا بالا ويعتبرونا بشر أما الآن فمعسكرات استقبال اللاجئين أصبحت تشكو الزحام وتضيق بمن فيها والمانحون تراجعوا عما كانوا يعطوه بالسابق كما إن اليمنين الآن صاروا يهاجرون من اليمن وأصبحت اليمن صومال أخرى لا ماء لا كهرباء وأصبح المشايخ يتقطعون للناس وارزقهم تماما كأمراء الحرب عندنا وأصبح اللاجئون اليمنييون ينافسون اللاجئين الصومال ولا يقلون عنهم معاناة لقد أصبحوا لاجئين ومشردين في وطنهم فكما لدى إخواننا اللاجئون الصومال في اليمن معسكر خرز بلحج والبساتين بعدن وجحين بابين لديهم لاجئون في مدارس عدن وأبين نتيجة حرب اليمن مع القاعدة ومخيمات للاجئين اليمنيين في المزرق بحرض سواء الذين شردتهم حرب صعدة أو الذين هجرتهم ورحلتهم المملكة العربية السعودية. وأصبح معسكر المزرق بحرض كالحقل الذي يسقي من ساقيتين قبل يومين كنت بمقهى كملخيه للأنترنت.

وجلست جوار الصحفي محبوب وشاهدته يتصفح قصيدة شعرية لشاعر يمني كان عنوان القصيدة هي الصوملة ويقول فيها:

إلـى صومالنا اليمـــني أخيرا صـرت في وطني
جلبنا بؤسك الأشـقـى إلى صنـعاء إلـــى عدن
فعفـــوا يا سعيـــدتنا هذا البـــؤس والمحـــن

ولا تسعفني الذاكرة بتذكر بقيت الأبيات

رد عليه فرح لقد عزمت على الرحيل وأردت أن أودعك وأوصيك تنتبه للأرض حتى وإن كانت خراب ومحروقة والسماء لازالت تمطر جهاما ستظل أرضنا وما زلت أحلم بتحرر الصومال من أمراء الحرب وأنانيتهم وتناحرهم على الحكم حتما سيعود صومال كما كان وستمتلئ المروج والشعاب بالخضرة وستضج السفوح والمراعي بثغاء التيوس والبرابر والماشية وسيتدفق من جديد نهري جوبا وشيلي.

امتلاء ذلك الزورق المتداعي والمتهالك عن بكرة أبيه بعشرات الأجساد من النساء والأطفال والشيوخ كانوا فرحين ومتفائلين بتلك الرحلة وأخذ الزورق يمخر عباب البحر ويشق بطنه بقوة وراح فرح يمسح سطح القارب الصغير بعينيه ويتفحصه بفضول وتوقفت عيناه عند منظر لأم ترضع طفلتها ذات العامين من أثداء يابسة هزيلة لم يتبقى منهما إلا جلد والطفلة ترنو إليه بحيرة وعتاب كأنها تستنجد به وتستفسره عما حل بضروع أمها التي لم تألفها هكذا يوم ولدت وأكثر ما أبكاه تلك الدمعة بعين الطفلة وتحديها لها ورفضها البكاء والصراخ وذلك القهر والانكسار بوجه المرأة وجوارها أباها الشيخ العجوز هذا كل ما تبقى من أسرة صومالية هي الأخرى طحنت الحرب عائلها وشبابها ونسائها وبينما هو ينتحب من داخله دما وحزنا على الطفلة التي ذكرته بأخته خدوج التي قتلت في الحرب وكانت تقاربها بالسن وتشبهها فجأة بدأ المركب يخفف من سرعته ويتهادي وتوقف تماما عن السير وتمركز خمسة

عشر مسلحاً في أطراف المركب وهم يشهرون أسلحتهم الآلية ووقف ربان المركب قرصان التهريب يخطب انتباه أعيرونا أسماعكم مبروك وصلنا إلى اليمن، أنتم الآن في المياه الإقليمية اليمنية حيث النعيم والخير ينتظركم، الآن بالدور وبهدوء كل واحد يأخذ سترة النجاة ويسبح باتجاه المكلا عاصمة مدينة حضرموت اليمنية، احتضنت الأم الصومالية صغيرتها إلى صدرها وراحت تستعطف الربان القرصان قائلة له: الماء بارد والمسافة طويلة ولن استطيع العبور ببنتي كما أنها جائعة ومريضة وأبي شيخ كبير لا يقوى على ذلك.

دحرها القرصان الغاضب بركلة من قدمه اليمنى في كتفها بدأت جلبة وعلامات تمرد على وجه اللاجئين لكن زخات من الرصاص لعلعت في ظلمات البحر المخيف، كانت كفيلة لهم لاستعادة مآسي الحرب وأهلهم الذين قضوا فيها فلاذوا بالصمت وبدؤوا باستلام أطواق النجاة المتهرئة وتقافزوا بقلوب واجفة في البحر الواحد تلوا الآخر كان آخر الذين بقوا المرأة وطفلتها وأباها أشفقت على طفلتها و توسلت إليهم أن يأخذوها لهم يربوها لكن أحد القراصنة نخسها بسنكي بندقيته هيا لا وقت لدينا نضيعه معك لدينا مهمة أخرى لاعتراض السفن التجارية التي ينتظرنا الصيد الثمين على متنها نطقت الأم وأباها بالشهادتين وأمسكت بيد أباها اليابسة المعروقة واندلقوا في غيابة البحر وتلقتهم ظلمته الموحشة والتيار المندفع العنيف بصفعات وهيجان ومزيد من الاضطراب وبدأت آلاف من فقاعات حباب الماء تنقش ظهر البحر المضطرب مع كل جسد يغرق وكأنها حراشيف وحش خرافي من وحوش الأساطير القديمة.

مدينة المكلا بزغ النهار وبدء رمح الشمس يرتفع ويرتفع وسطع قرص الشمس الاصفر بقوة فوق شواطئ المكلا الجميلة وتجمعت جمهرة من الناس حيث لفظ البحر جسد عشرين جثة كان نفس المنظر يتكرر أمامهم بين الحين والآخر لكن ما أدمى قلوبهم وفطرها هذه المرة ذلك المشهد المؤثر والحزين لتلك المرأة الميتة والتي تمنطقت من وسطها إلى صدرها بملائه وقد ربطتها جيدا إلى عنقها وبها جثة طفلة رضيعة ميتة هي الأخرى وبينما هم في غمرة حزنهم ووجوههم ذلك تناهى إلى مسمع البعض أنين خافت كان يصدر من شاب أسود ملفوف بفوطة زرقاء ممزقة وقد تلطخت قدميه المرمريتين بسبخ البحر وتعفر شعره المجعد بالتراب وصلت سيارات الإسعاف التابعة للهلال الأحمر اليمني وتم حصر الجثث استعداداً، لدفنها وتم إسعاف فرح تعافى فرح سريعا من حادثة الغرق وخرج يسأل عن صنعاء والصافية ورداع أخبروه أنها بعيدة وزوده بعض الأهالي بمزودة ماء وكيس به بعض الشطائر والخبز والكعك وأعطوه ملابس مستعملة لكنها جيدة، ودلوه على الطريق الساحلي الذي يمر به ويسير رفقته الذين يلقيهم اليم للشاطئ والذين يقطعون مئات الكيلومترات مشيا على الأقدام ميممين وجههم نحو المجهول والغربة والوحدة ينشدون صنعاء ورداع وصعده سواء للعمل في مزارع القات أو في مسح السيارات ربط فرح مزودة الماء بحبل وعلقها على كتفه، واندفع نحو الطريق الساحلي وهناك شاهد رتلاً طويلاً من الأجساد السوداء النحيلة واندمج وانخرط بينهم بعد أن حياهم.

وانطلق معهم صوب المجهول لم يعرف فرح ما الوقت وكم قد قطعوا وبدأت قواه تخور وعضلات فخذيه تؤلمه وكان يجد صعوبة بالمشي كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن العمران وأوغلوا في الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف كان الوقت عصر والزمهرير يشوي أجسادهم وفي الطريق قابلوا عدد من الكتل المتكورة على أنفسها وقد فارقت الحياة وبعضها قد سلبت ملابسهم حيث أخذها زملائهم لمكافحة الصقيع الشديد الذي ينخر العظام ويكاد يفتتها أخذوا يشخصون إليها بخوف وقد طاف بخاطرهم هاجس أن يلاقوا نفس المصير.

تلفتوا يبحثون عن مغارة أو تجويف صخري أو شجر يحتمون بها من شدة الصقيع لكن لم يجدو سوى الطبيعة الصامتة للصحراء الباردة وزمجرة الرياح التي أخذت تعوي بشدة كان عقد الرتل قد انفرط بفعل تساقط العديد من حباته البشرية بفعل الجوع والعطش وبعضهم قضى بفعل موجة الصقيع الشديدة لدرجة أنك لا تقوى على المشي حافيا من شدة برودة رمال الصحراء الناعمة والتي تجمد القدم وكأنها قدت من ثلج كان فرح هو الآخر لا يقوى على المشي وقد نفد كل زاده ومائه وقد تورمت قدماه وبدء الجوع يعضه بنابه كان هو وخمسة من رفقته قد شردوا كثير وابتعدوا عن الرتل البشري المتصدع.

كانوا يمشون مترنحين أشبه بالموتى الأحياء الذين نشاهدهم بأفلام الرعب عندما لاحت لهم من بعيد أطلال مدينة وصلوا إلى أول المنازل طرقوا بوهن واستحياء طلبوا ماء وطعام بانكسار أطعمهم أهل المنزل والمنازل

المجاورة وسقوهم تناولوا الطعام بشراهة وعبوا من الماء كالهيم التي تظل في الصحراء لأسابيع وتعود شديدة الظماء سألوا عن رداع وصنعاء ومعسكر خرز ومعسكر بجين قال لهم الأهالي أنتم الآن بتخوم أبين والمعسكر يبعد بضع كيلو مترات نامو في إحدى الخرابات وعند الفجر مضوا ينشدون معسكر بجين للاجئين الصومال بلغوه بعد مسيرة نصف يوم وهم يقتربون من أسواره تصدت لهم عصابة مكونة من ثلاثين صوماليا مسلحين بالفؤوس والسواطير وقطع الحديد قالوا لهم بغلظة المعسكر لا يتحمل المزيد ويضج بمن فيه ونصحوهم أن يحثو الخطى نحو رداع حيث العمل في مزارع القات مقابل المأوى والطعام أو صنعاء حيث العمل بمسح السيارات وأعمال البناء أو صعدة حيث بإمكانهم العمل بمزارع العنب والرمان وأنت تدندن بالحان الاغاني الصومالية التي تشعرك بالبهجة والسرور وتعيد لك ليالي مقديشو الجميلة ورقصاتها الصاخبة انهزموا عن أسوار معسكر بجين للاجئين وبدوءا رحلة أخرى من المعاناة والسير الطويل نامو ليلتهم تلك في أنقاض إحدى المنازل التي دمرت بفعل حرب اليمن مع تنظيم القاعدة كان الجو باردا والصقيع شديد جدا تجمدت عظام أربعة من الرفاق وماتوا من وطأة القر والإرهاق سلب فرح ورفيقه ملابسهم المتسخة الخارجية والتفعوا بها وأسنانهم تصطك بقوة وخبئوا في أكياسهم نعالهم البلاستيكية المتقطعة توجهوا في الصباح الباكر نحو أحد المطاعم طلبوا طعام هز صاحب المطعم رأسه كان كريما ورحيما بهم وضع لهم خوان ممتلئ بالطعام آكلو حتى تعبوا، ونزلت دموعهم من مآقي عيونهم من شدة الأكل وشربوا حتى الثمالة ملئوا زوادات الماء،

وخبئوا باقي الطعام بأكياس أخذوا يغذون السير نحو صنعاء لابد من صنعاء وإن طال الزمن إصرار عجيب وشوق غريب لصنعاء وكأنها فردوسهم الموعود.

كانوا يمشون تحت قبة الليل اجتازوا عدة مدن وقرى مرورا بالحبيلين والضالع وقعطبة أخير وصلوا يريم التي تتربع في شموخ فوق هضبة نقيل صيد الشاهق والملتوي نامو في باحة إحدى المساجد حدث جوارى فرح ما رأيك لو نتوسل للسيارات المارة تقلنا إلى صنعاء أو حتي ذمار وأشار إلى قدميه القذرتين المتشققة رد عليه فرح أنا أشعر بتعبك ومعاناتك لكن أنت تعرف إننا لاجئون والناس هنا لا يقوون على حملنا فالمواطن اليمني فقير ويعول أسرة ويبحث حتى يكاد يحصل على قوت أطفاله كما أن التوجس والخوف منا يجعلهم يعزفون عن صحبتنا ويقلونا معهم.

نام فرح الذي كان يحلم حلماً جميلاً بعمله في منظمة إغاثة في اليمن وراتب ضخم من الأمم المتحدة لكنه انتفض مذعوراً في الهزيع الأخير من الليل وقد تبدد حلمه على صرخة ألم شقت سكون الليل من رفيقه جوارى الذي كان يتلوى كالثعبان ممسكا بمنتصفه بكلتا يديه من شدة الألم والوجع ولم يجد فرح ما يداويه سوي أن يحتضنه إلى صدره ويحاول أن يسقيه لكن جوارى رمقه بنظرة أخيرة وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة قبل أن يشخص ببصره ويذوي كزنبقة في التراب ويفارق الحياة ؛ بسبب مغص كلوى حاد قضى عليه وضاعف من شدته البرد كانت ليلة ليلاء حالكة الظلام وشديدة القر

أغمض فرح عيني جوارى و تأنيب الضمير يوخزه بقوة وكان يتمنى لو جوارى لم يمت بعد أو يعود للحياة لوافقه الرأي وتحمس لمقترحه كم أنت قاسي وأناني يا فرح حتي في لحظاته الأخيرة ترفض أن تسعد ذلك البائس الذي لم يكن يرجو أن ينال من حطام الدنيا سوى أن يريح قدميه المتعبتين من المشي ولو لكيلو متر واحد ،استوحش من المكان ومضى تحت جنح الليل البهيم يسري ويتخبط لا يلوي على شيء مشى بكل إصرار وعزيمة اجتاز ذمار وقاع جهران ومعبر مر بخدار و بلاد الروس ونقيل يسلح هدئ من سرعته أمام نقطة تفتيش رمقه أحد الجنود بازدراء وهو يشير له بيد أن يواصل مسيره وبالأخرى كان يسف سعوطه الكريه الذي يطلق عليه بردقان، أصيب فرح بالتهتك العضلي لكنه اخذ يجري ويجري بكل ما يملك من قوة وقد تخلص من مزودته وأكياسه وتحول إلى عداء أولمبي في سباق مارثون حتي كان على مشارف حزيز ودار سلم بدأت دقات قلبه تدق بعنف وأنفاسه تتسارع وأصابه الوهن التام أخيرا نال مبتغاه وبدأت قدماه تثقلان وخر جثة هامدة وقد أصابه مرض التعب العضلي وإجهاد السير الطويل الذي اتعب عضلات قلبه الحالم والبائس ومات، وغفي غفوته الأخيرة وصنعاء والصافية على مرمى حجراً منه.

الشك

بركان ثائر أخذ يغلي في أعماقه صدره يعلو ويهبط أنفاسه تتقطع أخذ علبة السجائر أشعل السيجارة الوحيدة المتبقية، كانت المنفضة تعج بالعشرات من أعقاب السجائر أشعلت وأطفأت منذ مدة قصيرة دس ما تبقى من سيجارته بالكاد في ذلك الكم الهائل من الأعقاب وأخذ يذرع أرضية الغرفة ذهاباً وإيابا لماذا... لماذا لم تعد لحد الآن؟

همس لنفسه بهذه الكلمات لا شك انها تخونني مع عشيقها صور لنفسه خيالات شتى واقنع نفسه بها اخذ يسترجع ويتذكر تصرفاتها المريبة وأخذ ينسب كل حركاتها وأفعالها لمأثم نعم يوم كذا كانت مرتبكة ويوم كذا كانت خائفة ويوم الجمعة كانت تتصنع المرض الملعونة كانت تخدعني رن جرس التليفون ليبدد كل هواجسه هب كالملسوع التقط السماعة ضجيج وطنين بأذنيه أحس بالدور والدماء تغلي في عروق ويتذكر تصرفاتها المريبة وأخذ ينسب كل حركاتها وأفعالها لمأثم نعم يوم كذا كانت مرتبكة ويوم كذا كانت خائفة ويوم الجمعة كانت تتصنع المرض الملعونة كانت تخدعني رن جرس التلفون، ليبدد كل هواجسه هب كالملسوع التقط السماعة ضجيج وطنين بأذنيه أحس بالدور والدماء تغلي في عروقه خيل إليه أنه يسمع صوتها عبر الأسلاك كانت تتأكد هل عاد للمنزل حاول أن يحلل ذلك الاتصال الذي ظل طريقه إليه كأنه كان يسمع ضحكتها العبثية الجذلة

ويقطعها صوت رجولي خشن لننسي أمره يا حبيبتي وأغلقت السماعة بوجهه الآن تأكد لم يكن يتخيل كان حقيقة أعاد السماعة إلى موضعها، وقد تدفقت الدماء الى كل ذرة في جسده أخذ يصرخ بجنون الخائنة، توقف نجيب عن قراءة ما كتب من قصته عند هذا الحد وقد تصبب عرقا.

شرب كوب ماء معدني صبه لنفسه من علبة بلاستيكية زرقاء مخروطية الشكل ويمم شطره نحو درج خشبي مخلوع وجمع كل الأوراق التي فيه وعمد الى وطيس يقبع في زاوية الصالة بالمنزل وأشعله ورمي كل الأوراق فيه محدثا نفسه لن أصبح قاصاً أزرع الشك في عقول الشباب لقد كدت أصدق أحداث تلك القصة وكان يشاهد النار وهي تلتهم الأوراق بسرعة وقوة ويحس بها أنها تلتهمه هو وتحرق قلبه لا الأوراق.

ثائر

اندلعت الثورة فجأة وقلبت كل القوانين والموازيين والقوى، الشوارع تضج بمئات الآلاف من الناس أمواج تسو نامي من البشر هائلة وعملاقة تملئ الميادين والشوارع كان النظام الذي كان ثائرنا من أكبر أبواقه ورموزه الإعلامية ومن أشد أنصاره ومؤيديه وملكي أكثر من الملك يترنح وأخذت مصالحه هي الأخرى تترنح مع النظام الآيل للسقوط كانت مكاتب حكومية تقتحم ومراكز شرطة تحرق وسيارات مسؤولين تهشم وجثث تسحل وصدور ورؤوس تتفجر وعيون تقنص ودماء تسيل غزيرة وأجساد تتساقط هنا وهناك وغاز البروم الخانق يفترش الشوارع ،حسم موقفه سريعا أرتدى ملابس بسيطة عادية من أيام كان موظفا صغيرا شق طريقه بصعوبة وسط الزحام مشيا على الأقدام تخلى عن كل مرافقيه وذهب إلى تلك البناية الطويلة صعد السلالم بخطوات سريعة وقف أمام مكتب قناة الشمس الفضائية قناة الثورة طلب مقابلة مدير القناة سلمه بيان بانضمامه لثورة الشباب الشعبية بعد أن تبين له جرائم النظام ومفاسده واحتجاجا منه على مجزرة جمعة العزيمة تلى البيان لم يشاهد قط طوال أحداث الثورة لا في الساحات ولا في الفضائيات ولا في أي مكان مقابلة هاتفية يتيمة أجريت معه أيام الثورة صرح فيها الصحفي والإعلامي المخضرم يوسف الراشد انه احتجاجاً على مجزرة جمعة العزيمة انضم للثورة نجحت الثورة وتم القضاء على رموز النظام السابق وتم انتخاب قيادة جديدة تتولى حكم البلاد بدلا عن

النظام الفاسد السابق أعيد لعمله في تلك المؤسسة الإعلامية العريقة حلاقاً مرة أخري لرأس النظام ولكن هذه المرة للعهد الجديد كان متقنا لعمله وبارعاً وماهراً فيه.

أخذ يشيد بالثورة ودوره البطولي فيها وتصريحاته الشجاعة ومقارعته للنظام دون خوف أو وجل وكيف لم يتخف ولم يأبه لاختطافات الأمن القومي ولا لاعتقالات الأمن العام وكان كل يوم يفترش الساحات ويتقدم المسيرات الغاضبة وكما قانون الحركة ودوران الأرض من سنن الله في الكون كذلك قانون السياسة ولف ودوران علي عربي من سنن الله في بلاد العرب ؛ ولأن الثورات يخطط لها العباقرة وينفذها الأبطال ويسرقها اللصوص قاعدة عربية بحته في ديار العربان عاد النظام القديم بأسماء جديدة ووجوه متغيرة ونكل بالثوار ولفقت التهم ورموا خلف القضبان وتم اعتقال كل من شارك بالثورة التي وصفت بالمؤامرة الصهيونية لتخريب البلاد وبدأ روبسبير عربي يظهر وعهد من الإرهاب الأسود يسود و ظهر صاحبنا في قناة النظام الجديد يشيد بالحركة التصحيحية للثورة ويدين المظاهرات والساحات التي تعرقل حركة التنمية وتخرب الاقتصاد وتعطل أرزاق الناس ويقول أن النظام السابق كان أفضل بكثير ولم يرتكب جرائم كما ارتكبت بعهد الثوار وأن الفساد كان غير متفشيا كما هو الحال بعد الثورة وأن شباب الثورة مدفوعون من دولة لا تريد الخير للوطن، والغريب في الأمر أن هذا الثائر قد جمع من الثروة أيام الثورة أضعاف مضاعفه ما جمعه أيام النظام الفاسد ونال من النفوذ والحظوة مالم يكن يحلم به.

رجل مهذب

الكل في قريته يثني عليه وعلى أخلاقه وأدبه الجم، كان منذ طفولته مهذبا ،ومؤدبا ،ولبقا ماهرا في فنون، الكلام اعتاد احترام نفسه فكسب احترام الناس كانت سمعته هي ثروته وهي مستقبله لهذا كله لم يجانف الرذائل ولم يقترف الآثام عمره حتى عند غضبه كان حليما يحسن انتقاء الألفاظ ويسيطر على سورة غضبه عندما رحل إلى المدينة للالتحاق بالدراسة في الجامعة لم يخدعه بهرج المدينة وحياتها الصاخبة لم ينجر لنزوات زملائه في الجامعة ورفض أن يتخذ له صديقة كالآخرين، كانت الفضيلة عنده احترام الذات ،جدير بأن يجلب احترام الآخرين تعرض لعدد من محاولات الإغراء والمعاكسة من عوانس وأرامل.. الحي الذي يقيم فيه في تلك الشقة التي كان يقطن فيها ،مع عد من زملائه الطلاب.

كانت تسكن قبال شقتهم مومس تقتات من لحم جسدها اللاحم الوفير الذي تعيره لطالبي المتعة برهة من الزمن، مقابل حفنة من النقود تحصل عليها ،كانت جميلة جدا وممتلئة القوام، يتحسر المرء أن تنحدر لذاك المستوى، وأن تفرط تلك المهرة الأصيلة بذلك الجمال وتهينه بهذه الصورة المقززة، كان الكل يتسابق لإرضائها وقضاء وطره وإشباع غرائزه وإسكات تلك الحيونات التي تعربد في صدورهم.. لا حظ أن زملائه في الشقة قد بدؤوا يدمنون زيارتها ،ويتناوبون المبيت عندها، كان يحتقرها في قرارة نفسه، ويلعن اليوم

الذي سكن فيه في تلك الشقة وذلك الحي المحروم والمسكون بنسائه الرغبات المحمومات.

كانت المومس رغم جيش الرجال الذي تعرفهم، لاتزال ترفل في ثوب الصحة والعافية وتشع نظارة وحيوية وكانت تتمنى حتى تحية عابرة منه أو تسمع كلمة منه كان الشوق يهصر قلبها هصراً للحديث معه كان يرفضها ولا يطيق رؤيتها، كان يشتم منها تلك الرائحة المختلطة للعرق المقزز لأولئك الرجال من زوارها لم تؤثر فيه رائحتها العطرة المغرية التي تدوخ وتستقطب به الرجال وتجعل اشيائهم الخاصة تمتلئ بالدماء تنبض وترتجف رغبة.. كان قد كثر الكلام عنها وتضايقت بعض النسوة اللواتي دب الخوف فيهن على أزواجهن منها.

التقت به ذات يوما وكانت ترتدي ملابس فاضحة وبانتظار أحد زبائنها.. استحلفته بالله وناشدته باسم الدين وحق الجار ولوكان يهوديا أن يسمعها أصغى لها بتذمر ،توسلت إليه أن يسمعها فقط خمس دقائق أن يأتي إلى مسكنها وستترك الباب غير موصد ،رفض الذهاب إلى تلك البقعة القذرة وماخور الفحش كما يسميه.. وافقها الرأي على أن تأتي لشقته لتشكو له مأساتها بعيدا عن أعين المارة المتطفلين وما أن استقرت أقدامهما بأرضية الشقة حتى انقضت عليهما لمة من شرطة مكافحة الآداب وانتشرت حكاية الرجل المهذب في كل الجامعة والحى والقرية.

نجم

استيقظا باكرا، مثل كل يوم -مع زقزقة العصافير وهي تعزف سيمفونية الصباح الجميل العذب يطير بأجنحة الشوق، واللهفة التي ترفرف في جنباته يخطي بقدميه الصغيرتين نحو سقف الدار، ويصب لنفسه زخات من الماء في دلة معدنية، وراح يطس وجهه بالماء جيداً في عجل ثم هبط درج الدار الحجرية العالية نزولاً إلى الاصطبلات أخرج جديه الصغير وأخذا يداعبه وينهال عليه بالقبل حاولت يداه الصغيرتان تحريك مزلاج الباب الخشبي الضخم وهو يرتكز على أطراف أصابع قدميه لكنه لم يفلح وقد وقفت من خلفه أخته الكبرى شروق تتأمله بحنان وحب كاتمة ضحكة أفلتت رغما عنها محدثة أخاها الصغير أين ستذهب باكراً؟ هكذا أنت وجديك ولم تتناول طعام الفطور بعد أجابها أخاها الصغير أحمد ذو الخمس سنوات سأذهب أرعي الجدي.

أزاحت له المزلاج منبهتا عليه ألا يبعد كثيرا وأن يعود؛ لتناول فطوره أصدر الباب صريرا مزعجا يسمع لأعلى الدار وتدفقت نسمات الهواء البارد العليل تلفح وجهيهما أنطلق أحمد وجديه يتقافزان في أرجاء القرية والناس نيام إلا من بعض البيوت التي استيقظت رباتها في نشاط أخذ أحمد ينادي على جديه نجم والجدي يتبعه والذي أسماه أباه بهذا الاسم؛ نظرا لسواده

الشديد وتلك الخصلة البيضاء من الشعر التي تزين جبهته والتي تبدو كالنجمة الشديدة الإضاءة في بحر السماء السوداء حالكة الظلام.

كانا يتسابقان بمرح وسرور ويلهوان عندما قطع لهوهما صوت أحد إخوته يصيح من سطح الدار يدعوه للعودة لتناول فطوره، بعد أن انتهى من فطوره أخـرج له أبوه الشاه الهندية البيضاء الكبيـرة ذات الأذنين العريضتـين والمتدليتين للأسفل وطلـــب منه الاعتناء بها جيـدا والانتباه لها هي والجدي الصغير.

كان الموسم موسم الزراعة الذي يأتي في كل عام مثل هذا الوقت مرة في السنة ويستمر الزرع ثلاثة أشهر في الحقول ثم يتم حصاده وكانت الحقول محاطة بالأشواك من كل جانب حماية من عبور الماشية لها وأكل المحصول ويتم الرعي في التباب والتلال المرتفعة وفي بطن الوادي حيث تنمو الحشائش والأعشاب بكثافة وتكون طعام وعلف للماشية.

أنشغل أحمد مع أترابه في اللعب واللهو وجمع الثمار البرية وملاحقة الفراشات الملونة الزاهية والجميلة ،ولم يلحظ ابتعاد جديه كثيراً وشروده انتصفت الشمس في كبد السماء وحان وقت العودة للمنزل وبدء الأطفال يجمعون ماشيتهم استعداداً للعودة.. تلفت أحمد يمينا وشمالا يبحث عن جديه نجم وقد تسلل القلق والخوف إلى قلبه الصغير لكنه لم يعثر له على أثر ،أخذ يصرخ بأعلى صوته "مناديا نجم.. نجم أين أنت يا نجم؟ قفل عائدا هو

والغنمة الهندية إلى الدار وهو يتوقع أن يكون نجم قد سبقه حيث ليس من عادته يتوه ويجده قد سبقه للدار"..

أصيب أحمد بخيبة أمل وفجعه ورعب، عندما لم يجد نجم زاد منهما توعد أباه له بالعقاب لإهماله.. أنطلق يجوب تلال وحقول وتباب القرية يساعده أصدقائه الأطفال.. شارفت الشمس على الغروب وبدا الليل يستعد بوشاحه الأسود ليكسو القرية بظلامه الدامس، واحمد بين الحقول يزيح أعواد الذرة والدخن، ويفتش بينها وينادي بصوت مبحوح.. نجم.. نجم وعيناه مغرورقتان بالدموع والحزن والآسى، أين ذهب صديقه الصغير؟! كم يشتاق ويحن إلى تقبيله وضمه لصدره كان يتضور جوعاً فهو عدا الثمار البري لم يتناول شيء منذ الصباح، أتت أخته شروق تبحث عنه وجدته في حالة يرثى لها وقد شحب وجهه وأكتسى وجهه بحزن وأسى.. لا حدود لهما أخبرته أنهم وجدو نجم صديقه وحبيبه وونيس ألعابه ولم تكن سعيدة وهي تزف إليه الخبر أحتضنته إلى جنبها وسارا متعانقين عرف سر وجوم أخته عندما وصل إلى أسفل دارهم عند شجرة الكافور الضخمة العجوز. كان نجم يرقد بسلام وقد فارق الحياة وفوق شفتيه ابتسامة شاحبة وبطنه منتفخ وكان يزين عنق الجدي الميت حبل صغير مربوط بطرفه قطعة صغيرة من فردة نعال صغير ربطها أحمد في عنق جدية يوم أن ولد.

المحتويات

الإهداء 5
تقديم..... 6
سانتا كلوز..... 9
جُذيب 10
الشيخ عفيف 13
دردشة..... 16
حكايات من خلف الزبير 20
نظرية المرأة العالمية 24
رخيصة..... 26
أهبل من بجاش 29
الراتب 35
بعوضة 36
الصديق 39
صفعات..... 40
خريج جامعي 46
الكاميرا..... 48
طفل الحجر 51
يموتون بؤساء..... 56
الشك..... 66
ثائر..... 68
رجل مهذب 70
نجم..... 72